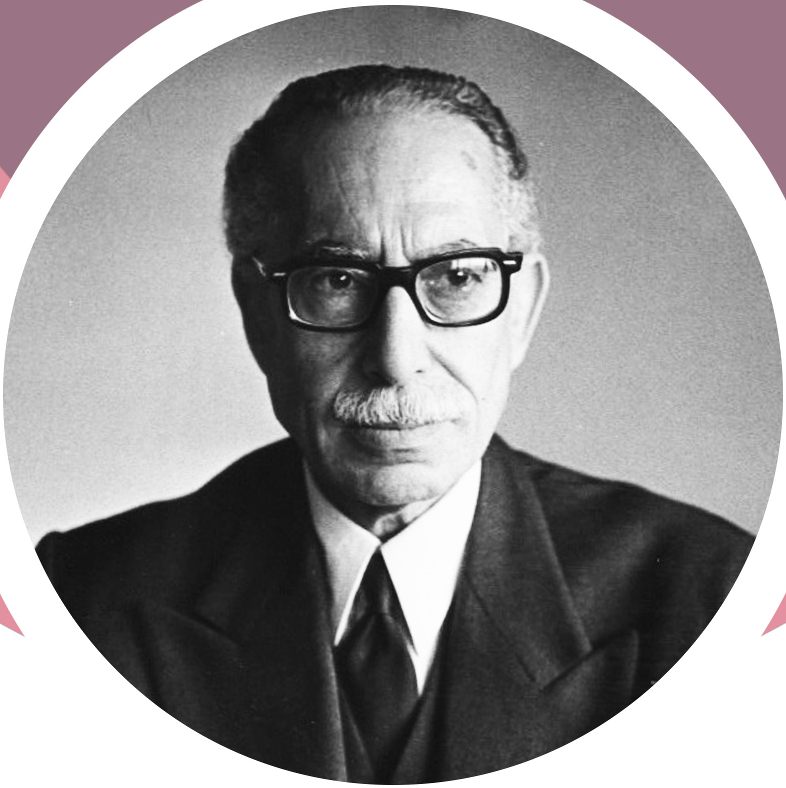

بنك القلق

توفيق الحكيم

بنك القلق

تأليف
توفيق الحكيم

هنداوي

بنك القلق

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٦٧ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	٢١
الفصل الثالث	٣٩
الفصل الرابع	٥١
الفصل الخامس	٦٣
الفصل السادس	٧٥
الفصل السابع	٨٧
الفصل الثامن	١٠٥
الفصل التاسع	١١٩
الفصل العاشر	١٣٣

الفصل الأول

ناطحة سحاب عجيبة في تركيبها … يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار. إنها ليست من أحجار، بل من آدميِّين استلقى أحدهم على ظهره فوق المسرح، ورفع قدميه إلى أعلى، وجاء آخر فقفز فوق القدم اليمنى، وجاء ثالث فقفز فوق اليسرى، ورابع تسلَّق كتفَي رجل اليمين، وخامس تسلق كتفي رجل اليسار، وإذا بسادس، أو على الأصح سادسةٌ حسناء ظهرت وانحنت تحيي الجماهير برأسٍ فاحمٍ قصير الشعر، وقفزت هي الأخرى قفزة لا يدري أحد كيف حدثت، فإذا هي في قمة هذا البناء الشامخ. ولم تمض لحظة حتى أقبل صبي يحمل صينية عليها أكوابٌ وآنيةٌ بها شراب أحمر، قذف بها هو الآخر فتلقفها أحد الرجال، وظل يسلمها إلى الطوابق التي فوقه طابقًا طابقًا حتى استقرت في يد الحسناء بالقمة فتناولتها ووضعتها على رأسها، وصبت من الآنية الشراب الأحمر في الكئوس دون أن تستند بيدها، بينما جماهير الصالة تنظر وتصفق.

وقف أدهم سليمان قرب أحد الأبواب يشاهد مع المشاهدين، وكان قد دخل إلى الصالة خلسة، مدفوعًا بالفضول والفراغ والصعلكة. لم يكن مظهره يوحي بأنه ممن يستطيعون حجز كرسي أو مائدة في هذا المكان، لكنه كان يملك الجرأة على اقتحام مثل هذا الملهى، ولقد أعد جوابًا سريعًا لمن يسأله عن سبب وجوده، إنه تابع دخل يبحث عن متبوعه، سائق سيارة خاصة، رسولٌ مُوفَدٌ للبحث عن متفرج محترم، وسيذكر أي اسم يخطر على باله، وباله هذا لم يخذله يومًا في اختراعِ ما لا وجود له. رأسٌ ملآن بالأفكار التي لا يقدِّرها أحد، شأن كبار المخترعين في أول أمرهم، الفرق بينه وبينهم في رأيه هو مجرد الحظ، وهو الآن في انتظار هذا الحظ، لأنه سوف يمر به حتمًا في مكانٍ ما، في لحظةٍ ما، كشعاع من الشمس لا بد أن يقع على وجهك مرة — في مكانٍ ما، في لحظةٍ ما — أثناء دوران الأرض الذي لا ينتهي.

على أن رأس أدهم سليمان مشغول الآن بفكرة طرأت عليه وهو يتأمل ناطحة السحاب الآدمية هذه، وقمتها رأس الآنية الزجاجية المملوءة تكاد تَمَسُّ سماء المسرح، ومن تحتها رأس الحسناء السمراء تطأ بقدميها طوابق من أكتاف رجال، كل ذلك راسخ كالبنيان، وكل هذا البنيان يمكن أن تطيح به سعلة صغيرة أو عطسة مفاجئة! حقًّا! ماذا يمكن أن يحدث لو دهمت أحدَهم عطسة؟ سينهار بالطبع هذا البناء كله، وينقلب الموقف البطولي إلى مهزلة، في طرفة عين! لماذا إذن لا يحدث هذا؟ ما من أحد سمع أن هذا حدث مرة فوق مسرح … مع أن هذا ممكن جدًّا. إن أساس العمارة هذا — ذلك الرجل المستلقي على ظهره رافعًا عموديه؛ أي ساقيه، ليحمل البناء — مصاب ببرد مصحوب بزكام، وقبل المجيء الليلة فاتَحَ تلك الحسناء في ذلك. إنها زوجته، وليست مع ذلك زوجتَه؛ لقد طلقها مرارًا وردَّها مرارًا لسلوكها السيِّئ. عشاقها كثيرون تلك التي التقطها هو من الحانات والشوارع وعلَّمها ودرَّبها. ما من شابٍّ يحلو في عينيها إلا وتهرب معه، فينفصل عنها الزوج ويتركها للمغامرة، إلى أن تنتهي الرغبة فتعود إليه صاغرة، ثم تهرب مرة أخرى ثم تعود، حياتها هروب وعودة، والزوج يقاسي وهي تقاسي. هو لا يدري متى تستقر حياته الزوجية، وهي لا تدري متى تنتهي نزواتها! … إنها لا تستغني عن نزواتها ولا عن زوجها، الزواج والطلاق يتأرجحان باستمرار في هذه الحياة البهلوانية. وهو الساعةَ، في استلقائه على ظهره، متزوج منها، ولكنه لا يدري موعد الانفصال القادم! … في الأفق شبح مغامرة جديدة، يشمها ولا يتبينها، هذا القلق النفسي الذي يعيشه، وهذا القلق الجسماني من عطسة زكامه … كيف استطاع أن يسيطر عليه في هذه اللحظة؟ … إن مجرد التفكير في العطسة أو السعلة، وتصور هذا البنيان الشامخ وهو «يتدربك» فوق رأسه بين ضحكات الناس في الصالة، لكفيل بأن يُحدِث الكارثة! … ولكنه سيطر على كل هذا في تلك اللحظة … بماذا؟!

وهذه الحسناء في القمة، عندها قلقها هي الأخرى. كل واحد من هؤلاء «المتشعلقين» في الفضاء، بل كل واحد من الناس في الصالة له قصة قلقه. هكذا كان يفكر أدهم وهو مستند بكوعه إلى الباب، لا يدري متى يُطرَد من هذا المكان الذي دخله خلسة. وحوَّل بصره إلى الصالة التي عبِق جوُّها بعطور الغواني والسيدات، ممتزجة برائحة الكباب المشوي … إلى تلك الموائد التي يجلس إليها نساء مع رجالٍ ذوي جيوب سمينة كضروع البقر على المَذاود، أمامهم الطعام والشراب وآنية الثلج الفضية كأنها الجرة التي يُحلَب فيها لبن هذا البقر، والحالبات موجودات؛ راقصات وغانيات تَدربْنَ على الملاطفة والمداعبة والملاعبة

أثناء حلب الجيوب، في صورة زجاجات وكئوس تسيل بلا انقطاع، مستعينات في أعمالهن بسقاة «وجرسونات» واقفين عن قرب، بين عيونهن وعيونهم سلك كهربائي أسرع وأبلغ من كل زر أو جرس … كل من في الصالة من حالب ومحلوب تبدو على وجهه صورة انفعالية واحدة أمام النمرة التي تُعرَض فوق المسرح. لكنْ خلف هذه الصورة الواحدة، آلافٌ وملايين من الصور المتعددة غير المكررة لأنواع من قصص القلق النفسي والجسماني، تدمغ كل فرد بدمغة مختلفة كبصمات أصابع اليد. وقصة قلق أدهم سليمان من بينهم معروفة له بالطبع، سببها بسيط في نظره، وسيوضحها هو تفصيلًا فيما بعد. أما الآن، في هذا المكان، فهو يريد أن يقرأ وجوه الآخرين؛ ليحل رموز تلك الشَّفرة التي تخفي حقيقة الصورة الظاهرة. إنها هوايته، وربما كانت مصيبتَه، وربما كانت مصدرَ حظه الذي لم يشرق بعد. ها هي ذي الموائد أمامه بمن عليها من قطيع مشغول بالأكل والشرب، أما الفرجة فقد استطاعها بالمجان، لكن الطعام؟! … يحسن أن يتخيل طعمه من مجرد النظر، كما تخيل قصص الآكلين. هذه الشريحة من اللحم المشوي محاطة بالبطاطس المقلية، موشاة بالبقدونس في طبق هذا الرجل البدين، يفتك بها فتكًا لا هوادة فيه، لعل خلف هذا عملية انتقامية، لا محل للاسترسال في حياة هذا الرجل، كل ما يهم منه الساعةَ هو طَبَقُ لحمه. وعلى الرغم من أن قطعة اللحم تبدو عسيرة على السكين، لرداءة الماشية أو كِبَر سنها، إلا أن اسمها لحم، وأدهم لا يذكر متى أكل اللحم آخر مرة، وهو بخياله المنطلق يستطيع أن يتذوقها خيرًا من الآكل الحقيقي، فها هي ذي السكين في يده هو، قد سارت فيها كما تسير في الزُّبد، وها هي ذي تذوب في فمه سائغة شهية، في حين أن ذلك الآكل الحقيقي سيصاب بعسر الهضم.

وشُغِلَ أدهم بقطعة اللحم فلم يفطن إلى مائدة أخرى في صدر المكان، ليس عليها طعام أو شراب، عليها فقط أطباق فاكهة، وسوف يفطن إليها قطعًا عندما يريد التحلية. وهذا ما حدث بالفعل بعد قليل، لكن الذي أدهشه أن هذه الفاكهة لا تمسها يد، أو على الأصح تناول منها أصحاب المائدة القليل، بأناقة، وتركوها في الحال، وانصرفوا إلى المشاهدة. لم يكن على هذه المائدة غير سيدتين، سيدة شابة في نحو الثلاثين، أنيقة مليحة نافذة العينين، لهما لمعانٌ خاطف كبرق المغنسيوم، أما صاحبتها فسيدة تقترب من الخمسين محتشمة صارمة الملامح، وإن كان عليها آثار مَلَاحةٍ قديمة ذبلت. لم يكن الأمر يحتاج إلى فِراسة أو خيال لإدراك حقيقة الحال، فهذه امرأة شابة مع أمها أو حماتها، لكن لماذا هما في هذا المكان وحدهما دون رجل مصاحب؟ … أليس للشابة زوج؟ لا يمكن أن تكون فتاة لم

تتزوج بعد، مظهرها مظهر زوجة، لعلها أرملة أو مطلقة، نعم هذا هو الأرجح، وهي ترتاد هذه الأمكنة على حريتها، وحدها مع أمها، نعم ... لا يمكن أن تكون حماتها إذن.

وهذه الأم تتبع ابنتها المتحررة سعيًا وراء زوج جديد. إن منظر هاتين السيدتين الأنيقتين بدون رجل قد لفت النظر فعلًا، لكن الوقار المحيط بهما قد أقام حولهما سياجًا. كانت نظرات أدهم هنا أيضًا موجهة إلى الفاكهة، ولم يلتفت إلى تغير النمرة فوق المسرح، فهناك الآن رجل يلبس الفِراك ويلعب في الهواء بثلاثة أسياخ مشتعلة، والنار المتوهجة منها تنتقل بسرعة خاطفة من إحدى يديه إلى الأخرى، فتصنع في الهواء دوائر متداخلة تصبح أحيانًا كأنها حلقة واحدة كبرى من النيران، ثم تنفرج وتتشكل في صورة نافورة ملتهبة. كان لمنظر اللهيب هذا تأثير غريب على السيدتين، فقد اهتزتا في مقعديهما، وخامرتهما في وقت واحد فكرة النهوض السريع والانصراف، كالهرب من شيء مخيف، لكنهما تماسكتا، ثم فاجأت كل منهما الأخرى بنظرة رعب لم تلبث أن انطفأت في إطراقة ذات معنى. صورة النار لها ولا شك دلالة مشتركة بينهما! وكان فزع السيدة المسنة أكثر عمقًا، وكأنها كانت تخشى تأثير النار على شيء ما في أعماق السيدة الشابة، للنار قصة في حياتهما إذن، قصة تريدان نسيانها أو تناسيها. لكن عين أدهم كانت مركَّزة على طبق التفاح، في أي تاريخ، قبل الميلاد أو بعده، وقعت في يده تفاحة؟!

لا لزوم لإجهاد الذاكرة، إن الذاكرة عنده جهاز لم يعد يسترجع الماضي، إنه الآن يخلق صورًا حاضرة ومستقبلة، فهو غير قدير على تجميع أجزاء حياته الماضية، ولا جدوى في ذلك عنده، لأنه لا يوجد عنده أمس، إنه قشة في أمواج المجتمع، مجرد قشة، ولكنه لن يغرق، لأن القشة لا تغرق، إنه إذن مطمئن من هذه الجهة، لكن هذا الاطمئنان نفسه غير مطمئن، هناك شيء أخطر من الغرق، شيء يشعر بوطأته هناك في أعماق نفسه، على الرغم من هدوء السطح وصفاء الجو، هذا الوجه الخالي من الزوابع، المشبع بعدم الاكتراث، لكنه يقاوم ... وأداته الابتسام، وهوايته أن يجعل القشة راقصةً تلعب بالمرح فوق الموج. وها هي ذي النمرة فوق المسرح قد تغيرت، وظهرت راقصةٌ تلعب ببطنها، فاستقبلتها الأيدي بالتصفيق، والأفواه بالهتاف، وخاصة من رجل جالس في الوسط بين غانيتين مبتذَلتين تحلبان جيبه، رجلٍ يبدو أنه حديث عهد بلبس البذلة، بذلة غالية الثمن لكنها كالغريبة عنه، يعلوها رباط عنق غير منسجم، وأمام الرجل كئوس كثيرة وأطباق دجاج محمَّر، لقد منع الجرسون من إحضار لحم، قال: إن اللحم في هذه المَحالِّ لا يؤكل، وهو أدرى، لأنه هو نفسه تاجر الماشية المورِّد لتلك اللحوم التي يَروضُها ويغازلها بسكينه ذلك الزبون البدين

وتصيبه بعسر الهضم. نظر أدهم إلى ذلك التاجر ولم يحسده إلا على الدجاجة المحمَّرة، ثم انصرف عنه وبحث بعينيه عن السيدتين فوجدهما قد غادرتا الملهى، والجرسون ينظف مائدتهما ويرفع أطباق الفاكهة.

وأقبل فتًى وفتاة، مراهق ومراهقة، من أنصار الخنافس، جلسا وهما يسألان عن موعد انتهاء هذه النمر السخيفة وابتداء حلْبة الرقص. لكن هذه النمر لم يزل فيها بقية، ها هي ذي الراقصة قد اختفت وحل محلها ممثل خفيف الظل يقوم بحركات من يديه وقدميه وحواجبه وعينيه، ويحكي حكايات فكاهية ويلقي نِكاتًا هزلية، يضحك عليها هو أولًا فتَضِجُّ بعده الصالة كلها بالضحك، من سمع ومن لم يسمع، ومن كان مشغولًا بأكل أو شراب أو مغازلةٍ قهقه أيضًا ثم سأل الرفاق عن النكتة! وانتهى عرض النمر بالتصفيق الحاد. وصعِدت على المسرح فرقة جاز بالسكسفون والجيتارات، وفي غمضة عين انفسحت بين الموائد حلْبة رقص، امتلأت وتلاحمت بأجسام مراهقين ومراهقات لا يدري أحد أين كانوا ولا من أين طلعوا! … وانضم إليهم من الرجال والنساء من جاوز الشباب وبلغ الكهولة ولم يخرج عن نطاق المراهقة. وحمي وطيس رقصٍ محموم اهتزت فيه الأكتاف وتخلعت السيقان، وخُيِّلَ للرائي أن أجزاء الإنسان تتطاير منفصلة في المكان، والأفواه تصيح بكلمات لا معنى لها … «تويست» … «هالي جالي» … «شيك» … والصالة كلها — الجالس، والراقص الرزين، والخفيف — قد أصابتهم كلَّهم عدوى الجنون العام، لقد انقلبت الصالة كلها قطعة واحدة كبيرة من المتفجرات الحية. ما هي العواطف الداخلية التي فجرت هذا كله؟ … ما الذي جرى للناس؟ … وقف أدهم سليمان ينظر إلى ما حوله ويحلل لنفسه عناصر هذه الحالة، كل هؤلاء ولا شك ليسوا في حالة طبيعية، ما من أحد الآن في حالة طبيعية، لماذا؟

وسكتت الموسيقى فجأة، بغير مقدمات ولا مناسبة، كما بدأت، شب الضجيج كومضة، ثم انطفأ كومضة أيضًا، وإذا كل من في الحلْبة قد تصبب عرقًا، وانسحب إلى موائده في استراحة قصيرة، ملأها ظهور مغنية تلقي منولوجها المعروف:

وردتـــي يـــا وردتـــي	شم الغرام في وردتي
ريحة الحبيب بذمتي	تـلـقـاهـا جـوا وردتـي

وكانت تحمل بالفعل سلة فيها ورد، تلتقط منه وتقذف به الجالسين، وتركَت المسرح ونزلَت الصالة، تسير بين الموائد تغني أغنيتها وتنثر وردها، أو تقدمه بنفسها إلى صاحب

الحظوة من زبائنها، أو مَن كُتِبَ له السعد أن يظفر بالتفاتها، لم يَبقَ في الصالة أحد لم يخرج عن رزانته، الجميع يَشِبُّون ويشرئبون طلبًا للورد أو للمغازلة أو لمجرد الزياط والفرفشة، الصاحي منهم والسكران. شخصٌ واحد فقط بين كل هذا الحشد الزاخر والموج الهادر ما تحرك من موضعه، هو بالطبع أدهم سليمان، ظل في موقفه كتمثال، وقد بدا كمخلوق غريب في ثباته بين هذه الحركة المائجة. كانت المغنية قد اقتربت منه، ولاحظت جموده، فألقت إليه بوردة فيمن ألقت، وتهافَت الآخرون، أما هو فلم يتحرك، ولم يُعْنَ بالنظر إليها ولا بالتقاط وردتها، وتركها تسقط عند قدميه. وتعجبت المغنية وأقبلت عليه، ومدت يدها إليه بوردة أخرى، لكن التمثال لم يتحرك، فهزته بيدها مستغربة: أيوجد من يرفض وردتها؟! لم تظفر منه بِرَد، وكان الناس قد بدءوا يفطنون إلى طول وقوف المغنية أمام ذلك الشاب النحيل، الذي لا يبدو عليه تأنُّق ولا يُسر حال، فصوَّبوا إليه الأنظار، وبدأ التهامس، ثم علا اللغَط وتساءل الناس: ما هذا؟ ... من هذا؟ ... ولم تجد المغنية حيلة مع هذا الشاب الغريب، ورأت أخيرًا ببديهتها الفنية والمهنية أن تخرج من هذا الموقف بشبه نمرة مسرحية، فتناولت زجاجة صودا «سيفون» موضوعةً على مائدة قريبة، وقالت مع ضحكة رنانة: «حضرته حران ويلزم له دش بارد!» ورفعت الزجاجة إلى رأس أدهم وضغطت على مِفتاحها، فاندفع ما فيها من غاز فوَّار ملأ وجهه بالزبَد والحَبَب، فضج الجمهور بالضحك وتحركت الأَكُفُّ بتصفيق الاستحسان للنمرة المرتجَلة، ومع ذلك ظل أدهم بغير حَراك، لم يَلفِظ حرفًا، ولم يرفع يدًا لمسح وجهه، وانصرفت عنه المغنية وهي تهز كتفيها، عادت إلى مسرحها تتبعها العيون، وانصرف اهتمام الناس عن أدهم، وأحس أن أحدًا لم يعد ينظر إليه، فأخرج منديله وجعل يمسح رأسه ويجفف وجهه، ثم ترك مكانه وانسل خارجًا من الملهى.

كان الجو في الخارج لطيفًا، فهي ليلة من ليالي مايو القاهرية، كان السير على كورنيش النيل ممتعًا، وقد كثرت خَلَوات العشاق على مقاعده الحجرية، التصق كل فتًى بفتاته، وأدهم يمر بهم ويرى النتيجة بعين الغد، أزمة مساكن ومواصلات ومواد استهلاكية! ... هذا هو حاصل الجمع والطرح والقسمة في العمليات الغرامية لعصرنا الحاضر. ما يُقلق العاشقَين الآن هو كيف يجتمعان، وعندما يضمهما سقفٌ واحد ويتعرى بينهما كل شيء يلبس القلق ثوبًا جديدًا.

تعب أدهم من السير، واستبعد فكرة العودة إلى مسكنه، فهذا المسكن أو الجحر أو الشقة الصغيرة في ذلك البناء القديم بِحارةٍ ضيقة من حواري شارع محمد علي لا تدخله

الآن نسمة هواء. ثم إن المصباح ليس به نقطة جاز، إنه بالطبع لا يستعمل الكهرباء، حتى لا يتشرف بزيارة قارئ العداد ومحصل النور، وما حاجته إلى نور، وهو لا يدخل مسكنه قبل الفجر، ما دام التسكع في الطرقات مباحًا، والشوارع بالليل مضاءة. لا بأس من النوم نهارًا، ولا بأس عند الضرورة من تعسيلة قصيرة تحت قبة هذه الشجرة، فوق هذا المقعد الحجري الخالي ... واتجه بالفعل إلى مقعد يلقي عليه جسمه المتعَب. لم يكن المقعد خاليًا تمامًا، هناك شخص يجلس عند أحد طرفيه، يجلس بلا حَراك هو الآخر، في نعاس لذيذ على ما يظهر، إذن فليجلس هو على الطرف المقابل، لن يزعجه شيء. وجلس وتنفس براحة في تنهد طويل، وبصره يحتضن النيل كله أمامه احتضان المالك لِملكه. ويبدو أن صوت تنهده كان مرتفعًا واضحًا، فأيقظ النائم إلى جواره وجعله يلتفت إليه ويحملق فيه، حملق كل منهما في صاحبه، وهنا انطلقت من كلٍّ منهما صيحة في نفس الوقت.

المنظر الأول

(أدهم والشخص الآخر، وقد اقترب أحدهما من الآخر فوق المقعد الحجري.)

أدهم (صائحًا بدهشة)**:** شعبان جاد عوضين!

شعبان (بنفس الصيحة)**:** أدهم سليمان!

أدهم: صدفة سعيدة!

شعبان: صحيح، والله زمان! ... سنين فاتت تجري!

أدهم: من أيام الكلية ... فاكر؟

شعبان: طبعًا فاكر ... كلية الحقوق ... أيام لا يمكن تنسى.

أدهم: كنا والله طلبة مجتهدين، لكن الحظ.

شعبان: أنت سقطت في كم مادة.

أدهم: أنا لم أسقط في مواد.

شعبان: ولا أنا.

أدهم: يظهر أن الحال من بعضه، وما حصل لي حصل لك.

شعبان: تمام والله! ... وأنت ماذا حصل لك؟

أدهم: أقول لك ... أنا يوم الامتحان ذهبت وكلي أمل واستبشار، أحمل أقلامي وأدواتي مما جميعه، ومذاكر المقرر على خير ما يكون الطالب المجد المجتهد، جلست في مقعدي، ومر علينا المراقب يوزع الأسئلة، نظرت في ورقة الأسئلة فوجدت العجب.

شعبان: ماذا وجدت؟

أدهم: لم أجد فيها كتابة على الإطلاق!

شعبان: كانت خالية؟

أدهم: كان فيها فقط رسم ... صورة واحدة؛ صورة حمار بأذنين طويلتين يخرج لي لسانه!

شعبان: عجيبة! ... وماذا حدث؟

أدهم: قمت بالطبع منتفضًا، وصحت في المراقب وعرضت عليه الورقة ... والحمار المصور فيها، فقال لي بكل تبجح إنها صورتي أنا.

شعبان: أما إنه رجل سمج وبلط صحيح!

أدهم: والأكثر من ذلك أني عندما أفهمته بكل أدب أني أنا لست واضع الأسئلة، وأنه إن كانت هذه صورة أحد فلا بد أنها صورة الممتحِن، ما كان منه إلا أن طردني من قاعة الامتحان، فخرجت بلا عودة!

شعبان: عملت طيب.

أدهم: وأنت؟ ... ماذا حصل لك؟

شعبان: نفس الشيء تقريبًا، ذهبت يوم الامتحان، مثلك بكل اطمئنان، أحمل أقلامي وأدواتي، ومذاكر المقرر إلى آخره ... إلى آخره ... وإذا بهم يقولون لي: صح النوم أنت جئت متأخرًا عن يوم الامتحان أسبوعًا، وعليك أن تشرف في العام القادم، فلما جاء العام القادم ذهبت إليهم بأقلامي وأدواتي ... إلى آخره ... إلى آخره ... فقالوا لي بكل بجاحة: أنت حضرت مبكرًا عن يوم الامتحان أسبوعين، فلم أطق هذا التلاعب، وصحت بهم غاضبًا: عندما تعرفون ضبط مواعيدكم أخبروني! ... وتركتهم وذهبت بلا رجعة!

أدهم: عملت طيب.

شعبان: نهايته، ما علينا من كل هذا التهريج ... معك سيجارة؟

أدهم: معي كبريت.

شعبان: كبريت فقط؟

أدهم: فقط لا غير، وعلى الأصح عود واحد كبريت، وعلى الأرجح أنه منطفئ!

شعبان: عود واحد كبريت ومنطفئ؟ ... ولماذا تحتفظ به؟

أدهم: أحتفظ به ... لأن الاحتفاظ، قانونًا، مظهر من مظاهر الامتلاك، أنا إذن أمتلك شيئًا، وهذا هو عندي رمز المِلكية.

شعبان: المِلكية المنطفئة!

أدهم: المِلكية هي المِلكية، وهذا هو رمزها عندي، وهذه مَزِيَّة لا يُستهان بها.

شعبان: مفهوم.

أدهم: لا يبدو عليك أنك مقتنع.

شعبان: الواقع أن امتلاك عود كبريت هو في حد ذاته لا غبار عليه، لكن كونه منطفئًا ... مسألة تحتاج إلى بعض الشرح!

أدهم: أشرح لك ... معنى كونه منطفئًا أنه كان قبل ذلك مشتعلًا، لأن الانطفاء منطقيًّا لا بد أن يسبقه اشتعال، فعود الكبريت الذي معي كان إذن في يوم ما قابلًا للاشتعال، ولهذا المعنى مزية لا شك فيها.

شعبان: مفهوم، مفهوم.

أدهم: وأنت؟ ... بماذا تحتفظ؟

شعبان: بكل المزايا التي تحتفظ أنت بها.

أدهم: عظيم.

شعبان: بالاختصار أنا وأنت ممن ينطبق عليهم، قانونًا ومنطقًا، وصف: مفلسين!

أدهم: بالضبط.

شعبان: لاحظ أن انطباق أي وصف على أي شيء أو أي شخص هو أيضًا مزية من المزايا.

أدهم: تمام.

شعبان: الحمد لله على كل هذه النعم!

أدهم: اسمع ... أنا عندي فكرة.

شعبان: بخصوص السيجارة؟

أدهم: لا ... لا ... فكرة نيرة!

شعبان: تقصد مشتعلة ... سابقًا؟!

أدهم: أنا الآن أتكلم بجد، افتح أذنيك جيدًا واستمع إلى ما أقول، لأن هذه الفكرة مهمة جدًّا، وليست بنت ساعتها، إنها تراودني من زمن، وكنت أتحين الفرص لوضعها موضع التنفيذ، كان ينقصني زميل يساعدني، والآن بوجودك أصبح العمل ممكنًا، إنها فرصة العمر.

شعبان: فرصة العمر؟! أسرع بها من فضلك!

أدهم: تأكد يا شعبان أنها فرصتنا الوحيدة في الحياة ... أنا وأنت.

شعبان: ما هي؟ ... انطق!

أدهم: هي أن نؤسس بنكًا.

شعبان: نؤسس ماذا؟

أدهم: بنكًا ... «بنك»، أي مصرف ... ألم تسمع عن كلمة بنك ... بنك مصر ... بنك إنجلترا ... بنك فرنسا ... البنك الأهلي ... بنك ... بنك ... بنك.

شعبان: آه.

أدهم: لماذا تقول آه؟!

شعبان: لأن الكلام معقول.

أدهم: الواقع أن الفكرة في غاية البساطة، وغاية الوضوح، وقد وضعت يدي عليها تمامًا.

شعبان: وضعت يدك عليها؟!

أدهم: تمامًا ... وأعتبرها الآن في جيبي.

شعبان: في جيبك؟! الحمد لله!

أدهم: أتعرف من هو أول من ابتكر فكرة البنك؟

شعبان: من هو؟

أدهم: مفلس عبقري، مثلي ومثلك.

شعبان: فعلًا هذه الصفات تنطبق علينا.

أدهم: انتهينا، نستخير الله إذن ونفتح البنك، موافق؟

شعبان: موافق طبعًا، ما دمنا حائزَين للشروط.

أدهم: هيا بنا إذن!

شعبان: هيا بنا!

أدهم: أتعرف ما هي عمليات هذا البنك؟

شعبان: لا.

أدهم: إذن انتظر حتى أشرحها لك.

شعبان: تفضل!

أدهم: قل لي أولًا ما هو داء عصرنا الحديث الذي يشكو منه أكثر الناس؟

شعبان: الإفلاس.

أدهم: هذا طبعًا داء، لكن داء العصر الذي أقصده يصاب به أيضًا الأغنياء … والفقراء على السواء.

شعبان: السرطان.

أدهم: لا، إنه داء نفسي يصيب الروح.

شعبان: ما هو؟

أدهم: القلق، البنك الذي سنفتحه سيتعامل في القلق، معاملاتنا ستكون في صنف القلق.

شعبان: صنف القلق؟

أدهم: نعم، كما تتعامل البنوك الأخرى في صنف النقود، إنها تقرض وتقترض في نفس الوقت، تقرض بفائدة كبيرة، وتقترض بفائدة صغيرة، والفرق هو مكسبها. نحن أيضًا سنعالج ونتعالج في نفس الوقت، نعالج بأجر كبير ونتعالج بأجر أصغر، والفرق هو مكسبنا، فهمت؟

شعبان: فهمت، لكن … يعني المطلوب منا أن نكون أطباء ومرضى في نفس الوقت.

أدهم: بالضبط.

شعبان: وإذا رفض الزبون علاجنا؟ … إذا قال إنه غير مختص.

أدهم: ما من أحد يرفض علاج أحد في هذه الأمور، يكفي أن تعرض متاعبك الداخلية على الغير لينقلبوا نصحاء وأطباء، بقدرة قادر، بعلم وبغير علم!

شعبان: الواقع أن فكرة هذا البنك بدأت تدخل عقلي … الظاهر أنك استفدت من دروس الاقتصاد السياسي!

أدهم: وأنت ماذا كنت تفعل في كلية الحقوق؟

شعبان: كان كل اهتمامي بدروس الشريعة والزواج والطلاق والنفقة، لأني وأنا بالكلية كانت على ذمتي زوجة أنوي طلاقها.

أدهم: والآن تحررت طبعًا.

شعبان: الحمد لله، تخلصت منهن جميعًا.

أدهم: منهن جميعًا؟! كن إذن أكثر من واحدة؟!

شعبان: بالطبع كن كثيرات، بعد أن تركت الدراسة وسرت في الحياة، لعنة الله على النساء، ابتليت والعياذ بالله بداء النسوان، كلما أرى واحدة لا أملك أعصابي، صرت أضم الواحدة إلى الأخرى في سبحة الزواج، حتى أصبحت السبحة طويلة، كنت أسبح بهن جميعًا … واحدة … اثنتين … ثلاث … أربع.

أدهم: أربع؟!

شعبان: على ذمتي، والخامسة «ستبن». موجودة تحت النظر لتحل محل من تُطَلَّق.

أدهم: ومن أين تأتي لهن بأكل؟

شعبان: كل واحدة تؤكِّل نفسها، كن كلهن موظفات وعاملات، وأنا أيضًا أؤكِّل نفسي، عملت في مختلِف المهن والأشغال، حتى الكرة، اشتغلت في نادٍ رياضي، كنت أريد أن أكون لاعبًا، ونجحت في الالتحاق بالفريق، وإذا بهم يقولون لي بعد أول مباراة إني كنت ألعب بالقدمين واليدين في وقتٍ واحد، وحولوني إلى الأعمال الإدارية للنادي، ولكني تركتهم واشتغلت بالسمسرة في شركات تأمين، ثم موظفًا في شركة إعلانات، ثم وكيلًا للمحامين الشرعيين، لأن نفقة المطلقات دوختني. وأخيرًا عشت منفردًا كما ترى، ألتقط اللقمة حيث أجدها، أي لقمة، والمرأة حيث تسمح الظروف، أي امرأة، ولتحيَ الحرية!

أدهم: نعم، فلتحيَ الحرية!

شعبان: وأنت؟ ... ألم تتزوج؟

أدهم: لا أبدًا، عملت في الصحافة ... مخبِرًا يأتي بأخبار المجتمع، ونجحت إلى حدٍّ ما، إلى أن قالوا لي أخيرًا إن جميع أخباري أؤلفها بخيالي وأنا على مكتبي، وسحبوا مني جميع العمل وأنزلوني المطبخ.

شعبان: مطبخ الأكل؟

أدهم: مطبخ الجريدة، عمل روتيني سخيف، تركته لهم وخرجت أهيم على وجهي بكامل حريتي.

شعبان: إذن نحن الاثنين أحرار.

أدهم: نعم، لنختار العمل الذي ينبع من صميم عبقريتنا، وقد وجدناه والحمد لله.

شعبان: البنك.

أدهم: نعم، والآن قم بنا نُعِد العدة للتأسيس، أولًا يلزم لنا إعلان.

شعبان: أين سيكون مركزه الرئيسي؟

أدهم: أين تسكن أنت؟

شعبان: الآن مؤقتًا في حجرة بسطح عمارة في حارة.

أدهم: لا... لا ... لا ... حجرة فوق سطح، بحارة ... هذا لا يمكن.

شعبان: وأنت؟ أين تسكن؟

أدهم: أنا أحسن منك على كل حال؛ أنا في شقة من حجرتين ومدخل.

شعبان: عظيم، إذن شقتك هي مركز البنك، أعطني العنوان وأنا أتكفل بالإعلان، هذه شغلتي.

أدهم: ستعلن في الصحف؟

شعبان: لا ... لا ... دعك من الصحف ... إنها تتكلف نقودًا، ونحن كما تعلم لا نتعامل بالنقود ... اترك إعلانات الصحف هذه لبنك مصر والبنك الأهلي، أما بنكنا نحن فيجب أن تكون طريقة إعلانه مبتكرة ونابعة من صميم عبقريتنا!

أدهم: كيف؟

شعبان: ستعرف ذلك فيما بعد، هذا شغلي، المهم الآن صيغة الإعلان.

أدهم: معك ورقة وقلم؟

شعبان: طبعًا لا.

أدهم: الصيغة على كل حال لن تخرج عن هذا المعنى: القلق، كلنا مصاب بالقلق من أجل شيء ما، إذا كنت مصابًا بقلق فاحضر إلينا نعالجك، وإذا لم تكن مصابًا فاحضر إلينا وعالجنا، وهي تجرِبة طريفة، فلا تضيع فرصة هذه التجرِبة.

شعبان: جميل، هيا بنا الآن نعاين المركز الرئيسي.

أدهم: تقصد شقتي، إنها لا تُرَى إلا في مطلع الفجر.

شعبان: إذن قم بنا نعاين الشوارع التي ستُلصَق بها الإعلانات.

أدهم: وهل ستُلصِق إعلانات شوارع؟

شعبان: طبعًا ... افتتاح بنك!

أدهم: لكن ...

شعبان: ولا كلمة! ... قم بنا في الحال نباشر مهام أعمالنا!

(ينهضان ويسيران.)

الفصل الثاني

سار الزميلان في الشوارع متلكئَين، أحيانًا يكلم أحدهما الآخر كلامًا مقتضبًا، وأحيانًا يكلم كل منهما نفسه، وأحيانًا يصمتان ويشردان. وفي كل الأحيان تحصي عين شعبان أكشاك السجاير، ويرقب بنفاد صبرٍ طلوع الفجر، حتى يستطيعا أن يدخلا ذلك الجحر، شقة أدهم، عدُوَّة الليل. ولم يكن هَرَبُ أدهم من شقته ليلًا يخلو من فائدة، ما من أحد استطاع أن يعرف حياة الشوارع ليلًا مثل أدهم، إنها معرفة ألفة وصداقة، لا معرفة ضرورة، إنه يمشي فيها إلى غير هدف، يتمهل في أحشائها بغير استعجال للنور، ويتباطأ في الخطى دون رغبة في وصول، وكلما وجد نفسه الصاحي الوحيد وسط الشوارع الساكنة خيل إليه أنها لا تعرف أحدًا غيره، وكل تلك البيوت النائمة والحوانيت الهامدة إنما هي أطفال تهجع في أحضانه الساهرة، وهذه التماثيل الواقفة تخطب في الظلام لجموعٍ وهمية، هو وحده الذي يستمع إليها، هو الوحيد الآن الذي يمكن أن تقوم بينه وبينها علاقة وحوار، وكلما مر ليلًا بتمثال طلعت حرب مؤسس بنك مصر قال له: «تكلم ... تكلم ... إني مصغ إليك، ولا فرق الآن بيني وبينك، فما في جيبي يساوي الآن بالتمام ما في جيبك.»

على أن هناك فوق ذلك متعة أخرى قلَّما ظفر بها غيره في تلك السويعات المهجورة، هي متعة الاستماع إلى الطيور عند استيقاظها، إنه حريص على أن يمر دائمًا عند بزوغ الفجر قرب حديقة الأزبكية، هناك تبدأ في العزف أوركسترا الطيور، تطلق العصافير أولًا زقزقاتها الوترية، يصاحبها لحن قرارٍ مِن ذَكَر الحمام، ثم تدخل ميلودية رقيقة من هديل اليمامات، تقطعها أصوات معدِنية من صرخات الحِدَآت، ترُدُّ عليها قعقعةٌ صماء من نعيق الغربان، تلطِّفها خلفية هامسة من هدهدة الهداهد، ويتخللها بين حين وحين

صفيرٌ من ناي العندليب ... سمفونية مرتجلة تضعها فرقة كاملة مؤتلِفة فنيًّا مع تنافر أنواعها، وتؤديها أداءً محكمًا كلَّ فجر، ولا يسمعها أحد غيره.

فالمستيقظ في تلك الساعة إما مؤمن يُهرَع إلى صلاة الفجر في أقرب مسجد، فهو مشغول بصلاته ... وإما مخمور خارج لتوه من حانته ليَأوِيَ إلى فراشه، فهو في غير وعيه ... وإما عامل ذاهب إلى مصنعه، فهو يفكر في مواعيد العمل وزحمة المواصلات ... وإما فلاح يسرح إلى غيطه، فهو يسوق أمامه جاموسته وحماره، ويصغي إليهما أكثر من إصغائه إلى الطيور، فلديه ما يشغله عن موسيقى الطير. إلا إذا كان شاعرًا، كما كان في طفولته أدهم سليمان أبو حواية، لقبه «أبو حواية» هذا حُذِفَ عند التحاقه بالمدارس، لكنه عندما كان طفلًا بقريته (كفر عنبة) لم يكن عَرِيف الكُتَّاب يناديه إلا بالولد أبو حواية.

في تلك الأيام كانت صلته وثيقة أيضًا بالفجر، كان يحب سماءه الرَّمادية، ثم اللون الأُرجُواني الصاعد فوق الأفق شرقي التُّرعة، على أن الذي كان يسحره حقًّا هو صوت القُبَّرة ورَدُّ أبي فصادة، فيقف يتلكأ قربهما وتحت إبْطه ربع القرآن واللوح الأَردُواز، وفي عودته يترك رفاقه الصغار ويجلس على شط التُّرعة يلعب في الطين ويصنع تماثيل صغيرة للقبرة وأبي الفصاد، إلى أن مر به ذات يوم حمار يشرب بجواره من الترعة، وفوقه غازية غجرية خلفها طبَّالها وزَمَّارها، قالت له وهي تشاهد طيور الطين إنها تستطيع أن تصنع له جملًا، جملًا كبيرًا من الجريد، جريد النخيل المعرَّش أمامه على حافة الأجران، فما إن سمع منها ذلك وأدار الصورة في مخيلته حتى تعلَّق بها وتشبَّث بذيل حمارها، وسار خلفها من قرية إلى قرية، ونسي كُتَّابه وعَرِيفه وبيته وأمه وأباه الشيخ المزارع الطيب، وظل غائبًا يومين وأهله يقيمون الدنيا ويقعدونها! ... إلى أن عثر به أحد أهالي قريته فأمسك به وأعاده إلى أهله. إنه متشرد من يومه، هكذا قال في نفسه وهو سائر صامت إلى جوار زميله شعبان، وكم خيب آمال أهله فيه.

وتذكر والده الشيخ عبد الصمد أبو حواية وفدادينه الخمسة التي يستأجرها في أطيان البك الكبير عادل بك عاطف الوجيه الأنيق. وِقفته المَهيبة كانت تبهره هو وبقية أطفال القرية، أنظارهم كانت تتعلق بالمقبض الذهبي لشمسيته وهو يشرف بنفسه على جمع القطن في شهر سبتمبر من كل عام، الشهر الوحيد الذي يجيء له من القاهرة مع أسرته؛ زوجته الحسناء وأختها الصغرى اليافعة وابنته الطفلة مرفت. كان يسمع الخدم ينادونها مرفت هانم أو الست الصغيرة مرفت، وهي تلح وتبكي لتركب حِصان البك

الكبير، كانت في الرابعة وكان هو في العاشرة، يراها بعيدة مثل ثمرة البرتقال والرمان والجوافة التي تتمايل فوق الأشجار من خلف سور الحديقة المحيطة بالسراية، هكذا كانوا يُسمُّون الفيلَّا التي يقطنها البك، مرة واحدة غامر وتسلق السور ومد يده إلى ثمرة جوافة قطفها من غصنها المتدلي، ولمحه الخولي وقامت الضجة وأُجْرِيَ التحقيق، وسمع من يقول إنهم سيوقعون غرامة على أبيه. ما زال يرن في أذنه صوت أبيه المتألم: «ليه يا ابني ليه؟» لكن القطوف الدانية فوق الشجر أتوجد يد طفل تقاوم إغراءها؟!

ولكنه أيضًا يرى أباه وقد جرُّوه ذات صباح إلى سجن المركز بتهمة التبديد، كان أبوه يصيح قائلًا إنه معترف ولا ينكر بيعه قطنه المحجوز عليه لعدم سداد الإيجار، كان ذلك يا ناس ضروريًّا لتجهيز ابنته الكبرى للزواج. ها هو ذا الصندوق الأحمر يتراءى لعين الطفل، كان موشًّى بزخارف طالما لعب فيها خياله، وإلى جوار الصندوق مرتبة ولحاف ببوشة، وحلل وطست نحاس أحمر، ثم ثوب من القطيفة السوداء ومكحلة نحاسية صغيرة، وزوج غوايش ذهبية وزجاجية ونميسة ذهب بجلاجل. ولكن رنين صوت أبيه ما زال في أذنه وهو واقف يستعطف قرب باب السراية، ثم يضع كفه على رأس طفله ويرفع عينيه إلى السماء داعيًا: ليس بكثير عليك يا رب أن تجعل ابني من الحكام، في يده أمر السجن والإفراج!

ولقد أصر فعلًا على تعليم ابنه، أرسله إلى خاله في القاهرة، عطار صغير في خان جعفر، ونجح أدهم في كل مراحل التعليم، لم يبخل عليه أبوه بكل ما استطاع من مصروف، ولا والدته بكل ما استطاعت من تدبير، المئونة من جبن وبيض وبتاو وبرام أرز تصله من حين إلى حين، وعندما التحق بكلية الحقوق باع والده الجاموسة لينفق عليه، لكنه كان قد بدأ يَقرِض الشعر، ويعتنق آراءً غريبة، ويرى الدنيا بعينه الخاصة، ومات والده وفي قلبه حسرة يوم عَلِمَ أنه ترك كلية الحقوق واشتغل بالصحافة، ثم اعتُقل، ثم أُفرِجَ عنه وعاد إلى الصحافة … ثم لم يعد أحد في قريته يسمع عنه شيئًا، انقطعت صلته بأهله، قيل له وهو في المعتقل إن أمه أيضًا ماتت. لم يبقَ له أحد يهمه سوى أخته الكبرى التي تزوجت، وسمع أن زوجها الفلاح قد ملَّكوه خمسة أفدنة في الإصلاح الزراعي، لكنه الآن بعيد كل البعد عن كل ذلك، دنياه الآن مختلفة، ورأسه يموج بأفكار … وأفاق أدهم فجأة، والتفت إلى زميله شعبان فوجده يسير هو الآخر تاركًا العِنان لهواجسه، وربما هو أيضًا لذكرياته، كانت مصابيح الشوارع لم تزل ترسل أضواءً خافتة أمام بواكير الصباح. قال له آن الأوان لتشريف الشقة، واتجها بِجِد نحو شارع محمد علي.

لم يكن أدهم يعرف شيئًا عن أسرة شعبان جاد عوضين ولا عن نشأته، كل ما يعرف عنه أنهما كانا زميلَي دراسة في الكلية، ثم زميلا تشردٍ الآن، ولما نكشه قليلًا ليفضي إليه بشيء، أجابه باختصار أن والده كان برَّادًا في عنابر السكة الحديد، ثم تركها واشتغل عند ميكانيكي سياراتٍ إيطالي، ثم استقل بورشة صغيرة عبارة عن دكان واحد في حي باب الخلق. وأن له أخوين أكبر منه، استمرَّا في الدراسة ونجحا، أصبح أحدهما مهندسًا والآخر مدرسًا، وتركا الحي وعاشا حياتهما المستقلة. أما هو فقد ابتُلي وهو في الكلية بحب فتاة في الحي، سحرته بلفة جسمها في الملاية اللف، فتزوجها سرًّا عن أبيه، ثم طلقها وتزوج غيرها من زميلاته في العمل بعد ترك الكلية، ثم طلقهن جميعًا كما سبق أن أخبره، وأصبح طريد النفقة إلى أن يئسن منه موسرًا، وأيقَنَّ أنه احترف العُسر ... ما أدهش أدهم من كل هذا هو أن زميله شعبان لا يرى في مثل هذه الحياة ضياعًا، ربما لأن الخيال ينقصه، كما قال في سره. لكن الأعجب هو أن أدهم نفسه يرى حياته هو طبيعية، لأنه يعتقد أنه صاحب مبدأ، صاحب نظرة خاصة، كان يرفض الحياة المبنية على الامتلاك. الامتلاك في رأيه هو السجن، والحر الحقيقي هو من لا يملك شيئًا؛ لا أرضًا ولا عقارًا ولا زوجةً ولا أطفالًا. وعندما وضع هذه الأفكار في الشعر لم تكن في ذلك خطورة، لكن عندما بشر بهذه الحرية من خلال سطور مقالاته الصحفية دخل السجن.

واقتربا أخيرًا من باب المنزل الذي يقطنه، كان على رأس الحارة المؤدية إلى ذلك المنزل دكان طعمجي، هو الوحيد الذي فتح دكانه مبكرًا، وبدأ يقلي الطعمية في طاسة فوق موقد، فيُسمَع للقلي نشيش، وتُشَم له رائحة أخذت بمجامع قلب شعبان، فتسمَّرا على باب الدكان. كان لا بد لهما من الأكل، لأن هذا بالنسبة إليهما هو العشاء لا الفطور، فهما سيصعدان للنوم طول نهارهما. وقدم البائع لكل منهما سندوتش طعمية وفول محبش بالسلطة، لكن المهم الدفع، وتظاهر شعبان بأن هذا واجب عليه، وجعل يخرج من جيوبه نقودًا لا وجود لها، قرش واحد فقط خرج بين أصابعه من أعماق البطانة، إنه ما زال يقترض من والده كلما تعطل عن العمل، ولا يسمي ذلك قرضًا، بل هو في عرفه رَدٌّ لقرض سابق لا ينتهي سداده، فهو في آخر وظيفة له قبض مرتبه وذهب به إلى والده في ورشته وأصر على أن يسلفه جنيهين من المرتب، لم يكن أبوه في حاجة إليهما. من ذلك الوقت وهو يروح من حين إلى حين يطالب أباه بالرد مع الفوايد، حتى قبض منه أضعاف ما اقترض. وما زال يقبض ما تيسر، أي مبلغ أو أجر يفوز به، ولو أجر سيجارتين وسندوتشين، إنه لا يطالب بالكثير حتى يكون له حق الاستمرار. وأيقن أدهم أن زميله غير جادٍّ في الدعوة، فأخرج في الحال بعض ما في جيبه ودفع، وجيبه هو أيضًا لا يحوي

إلا القليل، إنه ليس عنده والد ينصب عليه، لكن لديه صديقًا صحفيًّا سقيم الخيال ركيك الأسلوب، يقدم إليه من يوم إلى آخر بعض المقالات ليصوغها له بأسلوب شيق ويعطيه أجرًا من الباطن. وضع — في رأيه — يحرره من سيطرة رئيس التحرير. وتم العشاء الصباحي، وطلعت الشمس، فصعِدا إلى الشقة على سلم مظلم متآكلِ الدرج، لا يعرف هو الآخر وجود النهار، على الصاعد عليه أن تكون لقدميه عيون. وظل شعبان الغريب غير المعتاد يتعثر ويلعن وصاحبه يُنهضه، حتى بلغا باب الشقة في آخر طابق. وأخرج أدهم من جيبه المفتاح وفتح الباب وقال لضيفه: تفضَّل. وتفضل شعبان ودخل فوجد نفسه في مدخل صغير يؤدي إلى حجرتين، واستقبله بالترحاب ترابٌ ملأ خياشيمه، وهذا بديهي؛ فمن ذا الذي يتولى التنظيف هنا؟! أما المدخل فهو خالٍ تمامًا إلا من الغبار، وأما الحجرة التي تواجهه فهي فيما يظهر بالتخمين حجرة مكتب؛ فهذا شيء يشبه المكتب، ربما كان من خشب، عليه جوخة كانت خضراء في يومٍ ما. وهذان كرسيان من الخيزران مثقوبان ولا يصلحان للجلوس إلا مع الرفق والحيطة والحذر. هز شعبان رأسه وقال: إن هذه الحجرة يفترض فيها أن تكون مكان العمل والكتابة. وإن كان يدهشه أن يخرج منها شعر أو نثر! ... وفجأة ارتفع في الشقة صوت حاد يصيح: «يا سعيد أفندي، كلم سيادة المدير ... يا جرجس أفندي، كلم سيادة المدير!» فأجفل شعبان وارتعد وهمس: هل هذه الشقة مسكونة؟ ... فابتسم أدهم وهدَّأ روعه وأخبره أن هذا صوت السكرتير الخاص، فما دام يوجد مدير عام لا بد أن يكون له سكرتير خاص، ولا بد من المدير ما دام هناك بنك. وأشار له إلى الحجرة الأخرى، فدخلها شعبان مترددًا، فلم يجد بها غير سرير صغير من حديد قديم، وقطعة حصير على الأرض، ومسمار في الحائط معلق عليه جلابية وطاقية، إنها ولا شك حجرة النوم، لكن أين هذا السكرتير الخاص؟ ... وحانت منه التفاتة إلى الشباك الوحيد في الحجرة، شباك يطل على منور مهجور، فإذا معلق به قفص فيه ببغاء أخضر أحمر ضخم، قال أدهم إنه وجده بالشقة التي آلت إليه بعد سفر أو هرب ساكنها السابق اليهودي، وقد تولى هو بعد ذلك تعليمه وتدريبه على أعمال السكرتارية!

كان السهر والتعب قد نالا منهما، وشرع شعبان في خلع ثيابه وهو ينظر إلى ناحية السرير الوحيد، فلم يسع أدهم صاحب البيت إلا أن ينزل له عنه وينام هو فوق المكتب أو فوق الكرسي، وإذا بضيفه ينظر أيضًا إلى الجلباب المعلق على المسمار فصاح به: «لا ... حاسب!» إن هذا الجلباب ليس على مقاسه، وسيمزقه حتمًا لأنه فارعٌ ممتلئ، في حين أن أدهم أقرب إلى النحافة والقصر. ولم يمهله وبادر إلى جلبابه فارتداه وإلى طاقيته فدَسَّ

رأسه فيها، وانسل إلى الحجرة الأولى وارتمى على كرسي ومد قدميه فوق المكتب وراح في سبات، ولم يجد شعبان بُدًّا من البقاء في بنطلونه فتمدد به فوق السرير، ولم يمضِ قليل حتى علا الشخير.

لم يتحرك أحد منهما إلا على أذان العصر من المسجد القريب، فنهض أدهم أولًا وفرك عينيه، ثم أيقظ زميله فقام وهو يحك جلده من البق ويلعن اختياره للسرير! ... ولم يلبث النشاط أن دب فيهما، فخف الاثنان إلى العمل. جعل شعبان يبحث في درج المكتب عن ورق، وقعد يحرر بيده نسخًا متعددة من صيغة الإعلان، فلما انتهى وقف يعلن أن قسم الدعاية للبنك قد تم إنشاؤه بحمد الله وعونه، واصطحب أدهم ونزلا معًا إلى الشارع ولبثا يتسكعان حتى دخل الليل وأوغل، وأغلقت الحوانيت، فصار شعبان يمر بأكشاك السجاير ودكاكينها ويتخير منها ما يصلح، ويلصق على جداره إعلانًا مما خطته يده ... إلى أن نفدت جميع النسخ، فقال إن مهمة قسم الإعلانات قد انتهت ولم يبقَ سوى انتظار النتيجة ... وعادا إلى الشقة ينتظران الزبائن. وعندما استقبلهما بالباب الغبار المعهود أدركا أن أول واجب عليهما هو تنظيف هذا المكان وجعله لائقًا بدخول الآدميين، ولأول مرة دخلت المكنسة الشقة، اقترضها أدهم من أحد الجيران وسلمها إلى زميله شعبان، باعتبار أن النظافة تدخل في اختصاص قسم الإدارة والدعاية والإعلان.

المنظر الثاني

(أدهم وشعبان في الشقة ينتظران.)

شعبان (في يده المكنسة)**:** الشقة ونظفناها، والإعلانات ولصقناها، واللافتة على الباب وركبناها، باسم البنك ومواعيد الفتح والغلق، كل شيء أصولي، أربعة وعشرين قيراط وفي انتظار تشريف الزباين.

أدهم: اسمع يا شعبان ... أنت متأكد أن إعلاناتك هذه يمكن أن تأتي بزباين؟!

شعبان: وهل في هذا شك؟! إعلانات مبتكرة.

أدهم: مكتوبة بخط يدك، وملصقة على أكشاك السجاير!

شعبان: أحسن مكان، لأن المدخنين عادة هم القلقون.

أدهم: إعلانات خط يد!

شعبان: ومالُه؟! شغل يد، وشغل اليد دائمًا أغلى من شغل المكن.

أدهم: وخطك الذي يشبه نبش الفراخ؟!

شعبان: هذا أدعى إلى لفت النظر.

أدهم: أتستطيع أن تقول لي من هو هذا الزبون الذي سيذهب لشراء علبة سجاير ويلفت نظره ورقة صغيرة ملصقة بجدار الكشك عليها كتابة بخط منعكش تدعوه إلى زيارة بنك مؤسس في درب الطبالي بشارع محمد علي؟

شعبان: حب الاستطلاع يصنع العجب.

أدهم: نحن إذن في انتظار شخص يكون عنده حب استطلاع.

شعبان: سيأتي هذا الشخص.

أدهم: إذا تصادف وقرأ إعلانك!

شعبان: سيقرؤه إن شاء الله.

أدهم: أنت متفائل.

شعبان: دائمًا.

أدهم: أنت بالطبع عارف شغلك.

شعبان: مؤكد، أنا الصراف وأنت المدير.

أدهم: الصراف؟

شعبان: طبعًا، لأن الخزينة تتبع قسم الإدارة والإعلان، فأنا إذن المشرف على الخزينة، يعني الصراف.

أدهم: وهو كذلك، بس خذ بالك لئلا يدخل زبون ويجد في يد الصراف مكنسة! إنها علامة غير مستحبة.

الببغاء (تصيح في الخارج): يا سعيد أفندي كلم سيادة المدير ... يا جرجس أفندي كلم سيادة المدير.

شعبان: السكرتير الخاص ينبه الموظفين! ... آه لو عرف الزباين أن سكرتيرك الخاص هذا ليس إلا ببغاء في قفص!

أدهم: على فكرة ... ألقِ نظرة من عندك ... هل عنده أكل؟

شعبان: وما هو أكله؟

أدهم: قشر خيار ... قشر قرع ... أي قشر.

شعبان: ومن أين لك هذا الخيار والقرع؟

أدهم: صفيحة الزبالة عند الجيران عامرة دائمًا ولله الحمد!

شعبان (يلقي نظرة في الحجرة الأخرى)**:** عنده أكله ... سكرتير قانع متواضع! ... إنه هو حقًّا الذي لا يعرف القلق!

(طرق على الباب.)

أدهم: الباب ... زبون ... ارم المكنسة حالًا وافتح!
شعبان (يفتح باب الشقة مرحِّبًا)**:** تفضل ... تفضل ... أهلًا وسهلًا ... شرفت!
الزائر (في المدخل)**:** من أنت؟
شعبان (في المدخل)**:** أنا صراف الخزينة.
الزائر: خزينة؟
شعبان: تفضل ... تفضل جوه عند المدير.
أدهم (ينهض لاستقباله)**:** تفضل هنا!
الزائر (لأدهم)**:** الحمد لله لقيتك.
أدهم (مأخوذًا)**:** هو انت؟!
الزائر: أنا يا سيدي ... نسيتني ... نسيت شكلي؟
أدهم: لا أبدًا، أنت دائمًا في الذاكرة ... تفضل اقعد خذ راحتك!
الزائر: لا متشكر، أنا مستعجل، أنت عارف طبعًا سبب حضوري.
أدهم: الأشواق طبعًا، والقلوب عند بعضها.
الزائر: القلوب عند بعضها صحيح، والأشواق إليك صحيح، وإلى أجرة الشقة كذلك.
أدهم: أجرة الشقة؟
الزائر: أنا متأسف أذكرك.
أدهم: هذا حقك، المطلوب كم بالضبط؟
الزائر: أربعة أشهر متأخرة.
أدهم: وتتأخر أربعة أشهر؟
الزائر: أنا لم أتأخر، أنت الذي تأخرت.
أدهم: وعندما تأخرت أنا، أين كنت أنت؟
الزائر: كنت أحضر فأجد الباب مغلقًا، وأدق فلا أجد من يجيب!
أدهم: غريبة! ... لا بد أنك كنت تحضر في غير المواعيد.
الزائر: وما هي المواعيد؟

أدهم: مكتوبة عندك على اللوحة المعلقة بالباب.

الزائر: لم أقرأ لوحة.

أدهم: هذه ليست غلطتنا، المفروض أن اللوحة موضوعة لتقرأ، والحضور يكون طبقًا للمواعيد المحددة على اللوحة، هذه هي أصول البنوك.

الزائر: البنوك؟!

أدهم: طبعًا، هنا بنك، واللوحة على الباب مكتوب عليها اسم البنك.

الزائر: هنا بنك؟!

شعبان: وله مواعيد فتح وغلق، ولا بد من طلب النقود في مواعيد فتح الخزينة، لا قبل ذلك ولا بعد ذلك، خمس دقائق زائدة أو خمس دقائق ناقصة تمنع من الصرف، هذه هي الأصول المعمول بها في كافة البنوك، هل تستطيع سيادتك أن تذهب إلى البنك الأهلي بعد الساعة الثانية عشرة والنصف بدقيقة واحدة وتطلب نقودًا؟

الزائر: وهل عندكم نقود؟

أدهم: طبعًا، إذا حضرت في الوقت المناسب.

الزائر: ومتى الوقت المناسب؟

أدهم: عندما يكون عندنا نقود.

الزائر: ومتى يكون عندكم نقود؟

أدهم: عندما يأتي الوقت المناسب.

الزائر: بالاختصار، أنا أمام جماعة مماطلين مفلسين!

شعبان: من فضلك ... لا تقل مفلسين ... هنا بنك مثل كل بنك. كل بنك في الدنيا خزينته تفرغ في ساعة، وتمتلئ في ساعة ... حركة صادر ووارد ... وأنت مع الأسف تأتي في ساعة الصادر.

الزائر: وما قولكم في أن صبري نفد، وأني سأشرع فورًا في اتخاذ إجراءاتي ضد هذه المماطلات، وألقي بكم في الشارع أنتم وكراكيبكم هذه كلها.

أدهم: وما قولك أنت في قبولك شريكًا معنا في عمليات البنك؟

الزائر: شريك؟!

أدهم: بحق الثلث، وبذلك تشرف على جمع الإيرادات، وتأخذ نصيبك علاوة على أجر الشقة والمتأخرات.

الزائر: وهل يدخل لكم إيرادات؟

شعبان: طبعًا ... هذا بديهي، ألم تقرأ اللوحة؟ ... هنا بنك يُجري عمليات مهمة جدًّا.

الزائر: وما هي هذه العمليات؟

شعبان: نحن نتعامل في القلق ... هذا هو الصنف الذي نتعامل فيه.

الزائر: الصنف؟!

أدهم: لا ... لا تفهم خطأ ... أعمالنا كلها مشروعة، وفي حدود القانون والشرف، نحن هنا نعالج الناس من قلقهم ويدفعون لنا أجر العلاج، ويعالجوننا من قلقنا وندفع لهم أجرهم.

شعبان: والفرق دائمًا في مصلحتنا.

الزائر: وهل هذا عمل رائج؟

أدهم: جدًّا، لأن القلق منتشر، كل شخص عنده ناحية قلق من شيء، أنت مثلًا أليس عندك قلق؟

الزائر: طبعًا.

أدهم: إذن نعالجك وتدفع لنا أجرنا، أو يُخصَم من الإيجار، قل لنا من أي شيء أنت قلق؟

الزائر: من عدم دفعكم الإيجار، هذا هو سبب قلقي، وإذا أنتم سددتم ما عليكم أُشْفَى حالًا.

أدهم: كلام جميل، نحن على استعداد ...

الزائر: على استعداد للتسديد؟

أدهم: طبعًا ما دام هذا هو علاجك، لكن عليك أنت أيضًا أن تعالجنا من مرضنا؟

الزائر: وما هو مرضكم؟

أدهم: مرضنا هو مطالبتك لنا بالإيجار، وإذا أنت لم تطالِب نُشْفَى في الحال.

الزائر: ما هذا الكلام؟

أدهم: نترجم هذا الكلام إلى أرقام وأنت تفهم الحسبة بوضوح، إذا عالجناك وشُفيت تدفع لنا أجرنا، كلام مفهوم؟

الزائر: وكم أجركم؟

أدهم: خمسة جنيهات.

الزائر: خمسة جنيهات؟ هذا إيجار شهرين!

أدهم: أنت أيضًا ستقبض نفس هذا الأجر منا في حالة علاجنا.

الزائر: معنى هذا أنكم تدفعون لي الآن خمسة جنيهات بدلًا من عشرة.

أدهم: تمام، مطلوبك كله عشرة، يخصم منه خمسة أتعاب علاج، يتبقى لك خمسة.

الزائر: وهو كذلك، ادفعوا لي الخمسة.

أدهم: سندفع لك، هذه حسابات مضبوطة، لكن ...

الزائر: لكن ماذا؟

أدهم: فكرة دفع هذه الخمسة أعاد مرضنا مرة أخرى واحتجنا للعلاج، نفس العلاج.

الزائر: معنى ذلك؟ ...

أدهم: معنى ذلك أن علاجنا هو في عدم مطالبتك بالخمسة جنيهات الباقية من مطلوبات الشقة.

الزائر: الخمسة جنيهات الباقية؟

أدهم: لا تنسَ أنك ستقبض نظير ذلك أتعابك وهي خمسة جنيهات، وعندئذ تكون أنت قد شفيت فنستحق عليك أتعابنا خمسة جنيهات.

الزائر: الحاصل من كل هذا أني لن أقبض شيئًا.

أدهم: طبعًا، عملية مقاصة.

الزائر: مقاصة؟

شعبان: عملية معروفة في كل البنوك، رصيدك الدائن خمسة جنيهات والمدين خمسة جنيهات ... أي لا لك ولا عليك.

الزائر: شيء جميل جدًّا.

أدهم: إن شاء الله في العمليات القادمة باعتبارك شريكًا بحق الثلث سيكون لك رصيد دائن محترم، قل إن شاء الله!

الزائر: آه يا لصوص ... يا نصابين ... يا حرامية!

شعبان: احفظ لسانك من فضلك هنا بنك محترم.

الزائر: وأنت من حشرك أنت؟ من أنت؟

شعبان: قلت لك صراف الخزينة.

الزائر: تشرفنا!

أدهم: أنت نظرتك فينا غلط، تأكد أننا ناس شرفاء، وأن الأمانة والذمة رائدنا في العمل، لكن اصبر علينا، صبرك علينا ... أسبوع واحد ... وأنت ترى النتيجة سارة جدًّا

... نحن في أول عهدنا ... تفاءل ... تفاءل ... وارجع لنا بعد أسبوع وأنت تقبض جميع متأخراتك.

الزائر: أنا راجع ومعي حكم بالطرد!

(يخرج سريعًا.)

شعبان: رُح داهية تغمك!

أدهم: ما الذي جاء به اليوم ... هذه فاتحة لا تبشر بخير.

شعبان: تفاءل ... تفاءل!

أدهم: أنا متفائل، لكن مجيء هذا الرجل الآن عكر مزاجنا.

شعبان: انتظر حتى يجيء قراء الإعلانات، وعندئذ ينشرح صدرنا.

أدهم: نحن في الانتظار.

شعبان: على الأقل سيحضر من يطمع فينا ... ويدعي علاجنا ليقبض منا ... النصابون في البلد كثير!

(طرق على الباب.)

أدهم: الباب! ... أسرع!

شعبان (يذهب ويفتح)**:** تفضل ... أهلًا وسهلًا.

أدهم (ينظر إلى الزائر الداخل)**:** متولي؟!

متولي: طبعًا، ومن غيري؟

أدهم: قرأت الإعلان؟

متولي: أي إعلان؟!

أدهم: وما الذي جاء بك الساعة؟

متولي: جئت لك بشغل ... كالعادة.

أدهم: آه! ... شغل.

متولي: موضوع مهم ... اسمع ... (يلتفت جهة شعبان) حضرته ...؟

أدهم: الأستاذ شعبان جاد ... زميل قديم في الدراسة، والأستاذ متولي سعد زميل في الصحافة.

(شعبان ومتولي يتصافحان.)

متولي: والأستاذ شعبان صحفي؟

شعبان: لا، أنا …

أدهم: هو أحد مؤسسي البنك.

متولي: أي بنك؟

أدهم: ألا تعرف أننا أسسنا بنكًا؟ … ألم تقرأ الإعلانات؟ طبعًا لم تقرأها.

شعبان: واللوحة التي على الباب؟

متولي: هل على الباب لوحة؟

شعبان: لوحة كبيرة بالخط الكبير الفارسي.

أدهم: بنك القلق.

متولي: بنك ماذا؟

أدهم: القلق … القلق … ألا تعرف القلق؟ … تسعون في المائة من سكان العالم مصابون بالقلق.

متولي: جايز، لكن … ما دخلكم أنتم في هذا؟

أدهم: لو كنت قرأت الإعلانات كنت عرفت.

متولي: قلت لك لم أقرأ إعلانات! أين هي هذه الإعلانات؟!

شعبان: تملأ الشوارع.

أدهم: ألم تمر بأكشاك سجاير؟

متولي: طبعًا، منذ قليل … واشتريت علبة.

أدهم: علبة؟ … إذن بالمناسبة … لا بأس من أن تعزم علينا بسيجارة.

متولي: بكل سرور، تفضل.

أدهم (يتناول سيجارة)**:** شكرًا … تفضل يا شعبان!

شعبان (يمد يده هو الآخر ويتناول سيجارة)**:** مع الشكر.

أدهم: ندخل في الموضوع، من أين اشتريت هذه العلبة؟

متولي: من كشك في ميدان طلعت.

شعبان: ملصق هناك أكثر من إعلان.

متولي: لم يستلفت نظري شيء.

شعبان: غريبة!

أدهم: ربما كنت شارد الفكر.

متولي: أنا لا يشرد فكري أبدًا … أنا لست مثلك … المهم …

أدهم: المهم لا بد أن نخبرك باختصاص هذا البنك ... يا شعبان ... سلمه نسخة إعلان.

شعبان: هنا عندك في درج المكتب المسودة.

أدهم (يفتح درج المكتب ويخرج ورقة يناولها لمتولي): خذ ... ها هي نسخة ... تفضل اقرأ.

متولي (يقرأ بعينيه سريعًا): ما هذا الكلام ... الفارغ؟

أدهم: فارغ؟!

متولي (يلقي إليه بالورقة): رجل مثقف مثلك لا يخلو من موهبة، يضيع وقته في مثل هذه الألعاب الصبيانية!

أدهم: صبيانية؟!

متولي: اسمع يا أدهم ... أنا نصحتك أكثر من مرة ... قلت لك أنت خسارة ... خسارة في هذا الضياع ... عندنا في الجريدة زملاء وأنت عارفهم ... أقل منك مواهب ووصلوا.

أدهم: وصلوا إلى أين؟

متولي: إلى الاستقرار في الحياة على الأقل ... إلى المحافظة على مراكزهم ... كنت أنت أيضًا تستطيع ذلك ... لم تكن أقل منهم مركزًا في الجريدة ... لو كان عندك فقط قليل من المواظبة والجدية وتحمل المسئولية؟

أدهم: الله! أنت جئت الآن تلومني وتعاتبني؟ ... قلت لك ألف مرة هذا طبع ... مزاج ... أنا هكذا ... ولا يمكن أن أكون شيئًا آخر.

متولي: أنت حر، المهم أنا جئت لك بشغل.

أدهم: أنا الآن مشغول ... أمامي تأسيس بنك.

متولي: أرجوك يا أدهم يا صديقي ... فكر في شيء مفيد.

أدهم: وهل هذا البنك ليس بالشيء المفيد؟! ... إن فائدته سوف تعم المجتمع كله، وغدًا تعرف وتشهد أنها فكرة عبقرية.

متولي: أنا معترف لك بالعبقرية ... لكن فكرتك هذه، ولا تؤاخذني، تافهة!

أدهم: الأفكار التافهة هي التي غيرت وجه الأرض، قطار السكة الحديد من أين خرج؟ ... خرج من دخان تافه من إبريق شاي ... نظرية الجاذبية من أين هبطت؟ من تفاحة تافهة سقطت من شجرة ... البنسلين من أين ظهر؟ من قطعة خبز تافهة معفنة ... وهلم جرًّا ... وهلم جرًّا.

متولي: ليس الأمر بكل هذه البساطة ... ومع ذلك لا أرى أن فكرتك هذه يمكن أن يخرج منها شيء على الإطلاق، غير كونها مجرد مداعبات وألاعيب مما اعتدت أن تضيع فيه وقتك.

أدهم: من أدراك أنه لن يخرج منها شيء ... أنت لم تفهم جوهر النظرية.

متولي: أي نظرية؟ مكتوب في هذه الورقة أنكم تعالجون القلق ... هل أنتم أطباء؟

أدهم: نحن أطباء ومرضى في نفس الوقت.

شعبان: نحن نقرض ونقترض مثل البنك.

متولي: اسمحوا لي ... أنتم بالكم رايق ... تهزلون والدنيا من حولكم تجد ... اسمع يا أدهم ... أنا جئت لك بشغل ونقود.

شعبان: نقود؟

أدهم: أين هي؟

متولي: موجودة في جيبي ... والموضوع كتبته لك باختصار في صفحتين، لكنه يحتاج من قلمك إلى إعادة صياغته بأسلوبك الرشيق إياه، وعباراتك وتعبيراتك إياها، على شرط ألَّا تشط وتشطح، كن دائمًا على أرض الواقع وفي حدود الوقائع ... خذ ... هذا تحقيق صحفي عن الاتحاد الاشتراكي في كفر عنبة.

أدهم: كفر عنبة؟

متولي: نعم، بلدك ... طبعًا أنت أدرى بها.

أدهم: أنت عارف أنا لم أضع قدمي فيها منذ الطفولة.

متولي: لا يهم ... أنا دونت لك كل الحقائق التي شاهدتها بنفسي على الطبيعة، وما عليك إلا أن تنفش الصفحتين في أربع أو خمس صفحات بطريقتك اللامعة المتألقة، لأنها ستنزل على ثلاثة أعمدة.

أدهم: لا أذكر الآن من قريتي هذه إلا سراية عادل بك عاطف، هل هي لا تزال موجودة؟

متولي: موجودة طبعًا، لكنها أصبحت مقرًّا للإصلاح الزراعي.

أدهم: وأين ذهب البك الكبير؟

متولي: لا أعلم، يظهر أنه توفي.

أدهم: وبنته الصغيرة المدللة مرفت ... التي كانت تمتطي حصانه ويسندها الخدم والحشم؟ ... لا بد أنها اليوم في الثلاثين، كانت أصغر مني بست سنوات.

متولي: لا أعرف عنها شيئًا ... لكني أعرف عمها منير بك عاطف، بيته في الزمالك ... ما زال له نشاطه في القرية ... أراد أن يكون عضوًا في الاتحاد الاشتراكي ... كثير الاتصالات ومتداخل ... نفعني في هذا الربورتاج وزودني بمعلومات قيمة.

أدهم: وزوج أختي؟ ... بلغني أنهم ملكوه خمسة أفدنة.

متولي: جايز ... لقد وزعوا أراضي كثيرة على الفلاحين.

أدهم: الحمد لله أني لا أحب امتلاك شيء.

متولي: أنت حر في نظرياتك، المهم كن في حدود المعلومات والوقائع التي دونتها لك، لا تسرح ولا تتفلسف ... استلم. (يسلمه الصفحتين) وسلمني الشغل غدًا ... وخذ هذا الجنيه ... دفعة أولى.

أدهم (يقبض منه)**:** هات!

متولي: غدًا ... تذكَّر جيدًا ... لأني يجب أن أسلم الموضوع للجمع غدًا.

أدهم: اطمئن، سأسلمك الشغل غدًا في الميعاد ... على شرط.

متولي: ما هو؟

أدهم: طلب بسيط ... انشر لنا خبر البنك في الجريدة ... مجرد خبر صغير.

متولي: أنت مجنون يا أدهم!

أدهم: كما تنشرون إعلانات عن البنك الأهلي!

متولي: أيوجد مجال للمقارنة؟!

أدهم: كلها بنوك يا أخي ... لماذا التفرقة؟

متولي: تتكلم بجد؟

أدهم: وهل ترى على وجهي المزاح؟

متولي: اسمع يا أدهم ... ممكن نشر خبر عنكم ... لكن على سبيل التندر والنكتة والتفكه والتريقة.

شعبان: ليس عندنا مانع، المهم الإعلان عن وجودنا بأي طريقة!

أدهم: لا ... لا ... لا ... بأي طريقة لا ... أنا لا أقبل أبدًا تشويه فكرتنا وإضحاك الناس علينا.

شعبان: نتساهل قليلًا ... لنمشي الشغل.

أدهم: ممكن يا متولي إذا أردت ... أن تقول مثلًا إنها فكرة غريبة طريفة غير مألوفة ... هدفها كيت وكيت بكل أمانة وموضوعية.

متولي: سأفكر في الأمر ... والآن أنا مضطر أترككم ... عندي ميعاد في الجريدة ... أكرر رجائي يا أدهم ... غدًا بدون تأخير أستلم منك الموضوع ... إلى اللقاء!

(يسلم عليهما ويخرج.)

شعبان (ينظر إلى النقود)**:** جنيه! يعني مائة قرش صاغ! يعني ما يساوي كم سيجارة وكم قطعة سندوتش فول وطعمية مع التحابيش والسلطات! ... هذه ثروة هبطت من السما ... ومع ذلك يقول إنها دفعة أولى ... وعندما تسلمه الشغل غدًا يسلمك دفعة ثانية! شيء جميل! ... قلمك هذا يؤكلك الشهد يا أخي ... ما لنا وما للبنك وشغل البنوك؟ اصرف نظرك يا أخي عن حكاية البنك، وكان الله يحب المحسنين.

أدهم: اخص يا مذبذب! ... أنت مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

شعبان: يعني أنت مصمم على مسألة البنك؟!

أدهم: إلى النهاية.

شعبان: وأنا معك إلى النهاية، هات يدك!

(ويمسك بيده ويرفعها في يده إلى أعلى علامة التضامن.)

الفصل الثالث

ثلاثة أيام مرت دون أن يطرق أحد باب الشقة، ولم يشعر الزميلان بمتاعب الحياة، فعندهما زاد من السجاير والطعام؛ إذ بعد أن فرغ أدهم من صياغة المقال المطلوب، واجتهد في أن ينفشه حتى بلغ ست صفحات، استطاع أن يحصل نظيره على جنيه ونصف علاوة على الجنيه الذي كان قد تقاضاه دفعة أولى. وفوق ذلك أيضًا خطف من يد الصحفي متولي سعد علبة سجاير بلمونت كاملة العدد. لكن … ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، إن الإنسان قاطرة، تملؤها فحمًا تعطيك دخانًا. هذا بالطبع عند إنسان مثل أدهم، وقد تطاير بالفعل من رأسه دخان كثير، وأخذ أنفاسًا متلاحقة من سيجارته وجعل يفكر … أهو حقًّا يضيع حياته … كما قال له متولي؟ … أهو يلعب بها؟ … إنه حقًّا يحب دائمًا أن يلعب بشيء، منذ أن كان طفلًا في قريته يلعب بالطين ويشكله عصفورًا. ربما كان يلعب بحياته، لكنه لم يشكلها بعد، أما الضياع فلم يحسه قط. حتى عندما سار خلف الغازية الغجرية من قرية إلى قرية لم يشعر أنه طفل ضال، ولم يستشعر الوحشة، ولم يجد في نفسه الرغبة في العودة إلى أهله، لأنه من فصيلة طير النورس، يحوم على سطح البحر ويغوص أحيانًا بين الموج ولا يغرق أبدًا، ولأنه لا يعرف الغرق فهو يعرف القلق، وقلقه من نوع مختلف عن قلق الآخرين. كل ما يخشاه هو أن يُرغَم على قبول شكل في الحياة يسجنه. لقد أراد أن يلعب بالحياة لعبًا حرًّا، وهذا ما أعماه عن رؤية المأساة فيما يفعل، إن ما يفعله بحياته لم يضعه حتى في قصيدة من الشعر الحر. كتب بالفعل عدة قصائد ومزقها، فالكلمات في نظره أصبحت مثل نمال تركب فوقها أفيال، كل شيء ضخم إلى أن يحاول صبه في شكل، فليكن هو نفسه القصيدة، وليتركها متحررة من القوالب، كوب ماء بغير كوب.

حتى عندما حامت حوله الظنون وأُدخِل المعتقل، ورأى الطوائف المختلفة هناك ترحب به طامعة في ضمه إلى صفوفها، محاولة صب أفكاره في فلسفتها، رفض هذه الفلسفات المتينة التركيب، حتى حسبوه مدسوسًا أو جاسوسًا، ثم انتهوا إلى اعتباره مجرد حطام متحلل لا يُرجى منه شيء ... ابتسم لتذكره ملامحهم وهو يقول لهم إن الشيوعية الحقيقية بدأت عند الرجل الأول وهو في الجنة، وإن ماركس لا بد كان في وعيه الخفي جنة آدم كما ذُكِرَت في الأديان، تلك الجنة التي يسكنها آدم مع حواء، إنها في عرف المسيحيين كانت على هذه الأرض نفسها، وكذلك في عرف بعض المفسرين من المسلمين الذين قالوا إنها كانت دار «ابتلاء وليست هي جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء»، وإنها كانت في بقعة مرتفعة من الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونضرة ونعيم ... ما هو إذن النظام الذي كان سائدًا على هذه الجنة الأرضية؟ إنه كان ولا شك النظام الشيوعي في آخر مراحله، فإن آدم وحواء ما كانا يعرفان المِلكية، كل منهما كان يأخذ ما شاء على قدر حاجته لا على قدر عمله، لأنه لم يكن هناك عمل، إلا اقتباس المعرفة من النور العلوي والاستمتاع بالجمال السرمدي ... ما الذي حدث إذن لهذا النظام؟

حدث أن آدم وحواء أُخْرِجَا من هذه الجنة إلى جهة أخرى مجدبة فيها عمل وعناء، وهناك أنجبا أولادًا، والأولاد أخذوا يملكون، هذا زارع يملك قطعة أرض، والآخر راعي غنم. عرفوا الملكية فعرفوا النزاع والتنافس، وحدث القتل، أول جريمة في تاريخ البشر، والعجيب أن القاتل فيها كان هو قابيل المالك العقاري! منذ ذلك العهد وكل ما يحرك ذهن البشرية حتى اليوم هو ذكرى تلك الجنة والعودة إليها ... تلك الجنة التي يأخذ فيها كلٌّ على قدر حاجته ... الإنسانية كلها تحاول شق طريق إليها، إما عن طريقٍ مرصوف بالمذاهب العلمية، وإما عن طريقٍ مفروش بالعقائد الدينية ... كان أدهم يقول مثل هذا الكلام لزملائه في المعتقل فيسخرون منه، برفق حينًا وبعنف حينًا، فهو مخرف في عرف هؤلاء، ومجدف في عرف أولئك، وهم جميعًا يمدون الأكف ليقبضوا على تلك الفراشة الهائمة فوق رءوسهم كي تقع في هذه المنطقة أو تلك، وهو يصيح فيهم: دعوني! لا أريد أن أكون مالكًا ولا مملوكًا ... لا أريد أن أملك أحدكم ولا أحدكم يملكني.

وأخرج أدهم سيجارة أخرى من العلبة الموضوعة فوق المكتب، لم يبق فيها غير سيجارتين، وأشعلها ونفث الدخان، وألقى نظرة شاردة على صاحبه شعبان، فوجده مشغولًا بعمل لم يخطر على باله، رآه قد قلب مرتبة السرير وأخذ يلتقط من أركانها البق ويحمله بين أصابعه ويلقي به في المرحاض. تأمله قليلًا وقال في نفسه: أي نوع من الناس

شعبان هذا؟ لا يمكن أن يكون هو أيضًا قد قصد أن يلعب بحياته لعبًا حرًّا، إنه مجرد هارب من سجن؛ من نفقة مطلقاته، لكن إذا سنحت له فرصة صب حياته في أي قالب فإنه لن يتأخر، ولعله أخذ فكرة البنك، بنك القلق، هذا المأخذ. لكن فكرة هذا البنك هل هي شيء آخر غير مجرد لعبة من الألعاب، كما قال متولي؟ هل يظن أدهم حقًّا أنه مشروع جدي؟ إنه ما اعتاد أن يسأل نفسه سؤالًا كهذا، لأن الجد والهزل عنده حتى اليوم لفظان غير موجودين، أو هما سِيَّانِ ولا داعي عنده لفصلهما، يكفي عنده دائمًا أن تشتعل في رأسه فكرة، ما من أسئلة من هذا القبيل تقوم في ذهن طفل يلعب بالطين ويصنع منه تماثيل. إنه لا يزال يذكر رجلًا آخر رآه يومًا في قريته، ربما ظل دائمًا طفلًا هو الآخر، كان هو الوحيد في القرية الذي أدار ظهره لحركتها الدائبة، وانفلت من المحاريث السائرة والنوارج الدائرة والسواقي الناعرة، وذهب إلى شط التُّرعة يقطع سيقان البوص ويصنع منها مزامير، ملأ عُبَّه منها وجعل يتنقل بها بين القرى والعزب والكفور، ما كان يهمه أن يبيعها بقدر ما كان يهمه أن يزمر بها، واللعنات تلحقه من أهالي الناحية، ما الذي جرى لعقل هذا الرجل؟ وماذا يصنع بحياته؟ وأي مستقبل ينتظره؟ كل الناس يلقون هذه الأسئلة عنه، وهو لا يلقيها على نفسه.

أخذ الوقت يمر بطيئًا ثقيلًا على أدهم لأنه وقت انتظار … انتظار زبون وهمي لا يدري هل يأتي أو لن يأتي، وهو الذي كان دائمًا في نجوة من هذه البلية، لأنه لم يكن ينتظر شيئًا، لقد خلق الآن بيديه نوعًا من القلق لم يكن عنده. ولمح شعبان ينظر إلى الباب، بين حين وحين، نظرات تَرَقُّب غريزية، فأيقن أنه هو أيضًا قد أصبح فريسة هذا الداء، ورأى أن يهون عنه وعن نفسه وأن يشغله بشيء، فسأله عن نسائه، ولماذا لم يستبْقِ منهن واحدة، فزفر زفرة ضِيق وقال إن المرأة الواحدة سجن، وأربع نساءٍ حديقةٌ مغلقة عالية الأسوار، ومائة امرأةٍ حرية، لكنها حرية باهظة التكاليف لا يقدر عليها إلا الملوك والسلاطين، أما حرية الصعاليك فلا امرأة على الإطلاق، وعند ذلك يستوي الصعلوك والسلطان. لم يكن رأي شعبان يصدر عن مبدأ، إنما عن ضرورة، فهو لو استطاع لعاش كالملك سليمان، له ألف زوجة، إنه على عكس أدهم الذي لا يتصور المرأة إلا مقترنة بالحب، والحب عنده تلاحم روحي وجسدي في وقت واحد، والعدد اثنان في رأيه هو العدد الوحيد الذي يمثل الحب، ومن هنا جاءت قوة الحب وقسوته، ولهذا كان أدهم يخشاه ويفر منه، فراره من قضبان ليمان، ومع ذلك فهو يعرف أن في تركيبه الطبيعي جهازًا خفيًّا ينبهه عند الخطر، والخطر عنده ليس في أن يحب هو امرأة، ولكن في أن تحبه هي،

وقد أحب ذات يوم زميلة صحفية فأحس أنه انقلب فراشة، وعندما أحبته هي حنطته في كتابها، فانقلب الحب فيه إلى دقيق. كان شعبان يصغي إلى هذا الكلام ولا يعجبه ولا يفهمه، لأن الحب عنده ليس بهذه الخطورة ولا بهذا التعقيد، إلا عند انقلابه إلى مطاردة في سبيل النفقة. وفرغ من جمع البق في المرتبة على قدر المستطاع وغسل يديه، وعاد فسحب سيجارة من العلبة، وجلس ومد قدميه في استرخاء، كمن فرغ من مهمة عظيمة، ونفث الدخان ببطء، وترك جفنيه ينطبقان كما لو أنه استسلم للنعاس. ولم يشأ أدهم إزعاجه، وحاول أيضًا أن يفعل مثله، لكنه لم يستطع، فقد تتابعت في رأسه صور وأفكار مختلطة. هذا الشريط السينمائي الذي يُعرَض أحيانًا في الذهن بغير ترتيب، مرة مقلوبًا ومرة مشوشًا ومرة باهتًا ومرة ساطعًا ... يُعرَض بلا مقدمة ولا خاتمة، ولا يُعرَف له رأس من قدم.

المنظر الثالث

(أدهم وشعبان في صمت طويل.)

أدهم (فجأة لزميله): نمت؟

شعبان (يفتح عينيه): لا، أبدًا ... أنا قاعد أفكر.

أدهم: تفكر؟ ... في أي شيء تفكر؟

شعبان: في الإعلان.

أدهم: إعلانك يظهر أنه خاب خيبة ثقيلة!

شعبان: لا يمكن ... الحسبة بسيطة ... تعال نحسبها ... وضعنا عشرة إعلانات على الأكشاك والدكاكين، في أهم مركز ... اجمع عدد المارة أمام الأكشاك والدكاكين العشرة ... في الأيام الثلاثة الماضية ... وعدد المشترين للسجاير ... واستخرج المتوسط ... طبعًا للدقة، اطرح من الحاصل عدد العُميان والعُور وضعاف البصر واللاهين والسارحين والمخمورين والمغفلين والأميين وغيرهم ممن لا يقرءون الإعلانات، كم يتبقى لنا بعد ذلك ممن قرءوا إعلاناتنا ... كم؟

أدهم: قل أنت!

شعبان: ألا يمكن أن يطلعوا خمسين شخصًا؟

أدهم: قل عشرين.

شعبان: عشرين، أنا معك، عشرين شخصًا ... أين هم؟!

أدهم: لاحظ أن من بين هؤلاء العشرين عددًا — ربما كان أغلبية — سيقرأ إعلانك ويهز رأسه بغير اهتمام أو بغير اقتناع بجدية الموضوع.

شعبان: أنا معك، كم تقدر هذه الأغلبية غير المهتمة وغير المقتنعة؟

أدهم: قل مثلًا خمسة عشر شخصًا.

شعبان: من عشرين يتبقى خمسة ... أين هم؟

أدهم: لا تنسَ أن من بينهم أيضًا عددًا لم يستطع فك خطك الذي يشبه نبش الفراخ.

شعبان: ماشي كلامك ... هذا العدد الجاهل الحمار الذي لا يقرأ خطي كم تقدره؟

أدهم: لا ... من هذه الجهة لا أقل من تسعة وتسعين في المائة!

شعبان: أنا معك ... يتبقى واحد في المائة ... أين هو؟

(طرق على الباب.)

أدهم: ها هو!

شعبان (يقفز ناهضًا ويتجه إلى الباب وهو يصلح ثيابه): يا رزاق يا كريم!

(أدهم ينهض هو الآخر ويصلح من شأنه لاستقبال القادم.)

شعبان (يظهر وهو يقود رجلًا وجيه الهندام في الخامسة والخمسين): أهلًا وسهلًا ... تفضل ... حصل لنا الشرف.

أدهم (يسرع بتقديم مقعد إليه): تفضل سيادتك هنا.

الوجيه (يجلس وهو يتنفس بمجهود): أف ... آه ... سلمكم متعب جدًّا!

شعبان: أي نعم السلم هنا صعب ... لكن على كل حال وصلت بالسلامة!

الوجيه: الحمد لله!

أدهم: سيادتك طبعًا ... حضرت بناء على الإعلان؟

الوجيه: أي إعلان؟

شعبان: الإعلانات الملصقة في الشوارع.

الوجيه: أتوجد إعلانات ملصقة في الشوارع؟

أدهم: يقصد على أكشاك السجاير ... حضرتك تدخن؟

الوجيه (يخرج علبة أنيقة ويقدم إلى أدهم): تفضل!

أدهم (يتناول سيجارة): شكرًا.

الوجيه (يقدم العلبة إلى شعبان)**:** تفضل!

شعبان (يتناول سيجارة)**:** مع الشكر.

أدهم (يبحث ببصره)**:** علبة الكبريت كانت هنا.

الوجيه (يخرج ولاعته الثمينة)**:** لا ... لا داعي ... معي ولاعتي.

(يشعل سيجارته ثم يقدم الولاعة لكل منهما.)

شعبان: لا بد أن حضرتك لم تمر بنفسك أمام كشك أو دكان سجاير.

الوجيه: بالعكس، أنا مررت البارحة واليوم أمام دكان سجاير بميدان طلعت، واشتريت ...

شعبان: تمام، هناك تجد إعلاناتنا ملصقة.

الوجيه: لا تؤاخذوني! ... أنا لم أقرأ لكم إعلانات بالمرة، ولم يخاطبني أحد في شأن إعلاناتكم.

أدهم: وكيف إذن جئت هنا سيادتك؟ من دلَّك على عنواننا؟

الوجيه: الأستاذ متولي سعد ... الصحفي ... لكم به معرفة بالطبع؟

أدهم: طبعًا ... زميلي.

الوجيه: هو الذي حدثني عنكم وعن مشروعكم.

أدهم: بنك القلق؟

الوجيه: بالضبط.

شعبان: عمل له إذن الدعاية والإعلان.

أدهم: قام بالواجب صحيح.

الوجيه: الحقيقة أن الفكرة أعجبتني.

أدهم: هذا شيء يسعدنا.

الوجيه: الواقع أن القلق سائد بشكل وبائي، عند كل الناس، وفكرة إنشاء بنك للقلق فكرة مدهشة، أهنئكم!

أدهم: سيادتك طبعًا مصاب بالقلق.

الوجيه: طبعًا مثل كل الناس.

أدهم: اطمئن، جئت لنا في الوقت المناسب.

شعبان: الحق، هذا من حسن الطالع أن يكون رجل وجيه محترم مثل حضرتك هو فاتحة أعمالنا.

الوجيه: أنا إذن أول من حضر لكم؟

شعبان: حصل لنا الشرف.

أدهم: الافتتاح على كل حال كان اليوم.

الوجيه: وأنا يسرني أن أفتتح عملكم.

أدهم: أحب أطمئن سيادتك أن أسرار الزباين عندنا في الحفظ والصون، لن نخوض في الخصوصيات ولا الشخصيات، كل ما يهمنا هو معرفة نوع القلق بصورة عامة، فمثلًا ...

الوجيه: اسمح لي أن أوفر عليكم الكلام، وأقول بكل اختصار إن القلق عندي وعند غيري ... عند الجميع ... وربما في العالم كله ... هو الشعور بعدم الاستقرار ... أليس هذا رأيكم؟

أدهم: طبعًا.

شعبان: طبعًا ... طبعًا.

الوجيه: والأسباب مختلفة ... كل واحد عنده أسبابه ... خذوا مثلًا حالتي أنا ... وحالة أمثالي ... افرضوا مثلًا، مجرد فرض ... أني أمتلك خمسمائة فدان ... أقصد كنت أمتلكها ... والآن بالطبع لم يبقَ منها إلا مائة فدان فقط حسب قانون الإصلاح الزراعي.

أدهم: سيادتك كنت تمتلك خمسمائة فدان؟

الوجيه: مثلًا.

أدهم: وأصبحت الآن مائة؟!

الوجيه: فقط.

شعبان: أنت إذن خير منا.

الوجيه: خير منكم؟ ... كيف؟!

شعبان: أنا مثلًا كنت أمتلك سبعمائة فدان ... ضاعت مني كلها ولم يبقَ لي منها فدان واحد.

الوجيه: الاشتراكية؟

شعبان: النسوان.

الوجيه: يا ساتر!

شعبان: وشريكي كان يملك ستمائة فدان ... ضاعت منه كلها هو الآخر ولم يبقَ له منها ولا فدان.

الوجيه: النسوان أيضًا؟

شعبان: القمار.

الوجيه: يا حفيظ! أضعتم أراضيكم كلها في النسوان والقمار؟!

أدهم: وأصبحنا كما ترى لا نملك شيئًا.

شعبان: إلا العافية.

الوجيه: هذه مصيبة! وما زلتم بعقلكم؟!

أدهم: الحمد لله!

الوجيه: يا بختكم!

شعبان: تحسدنا؟!

الوجيه: على هدوء بالكم! ... هل تنامون بملء الجفون؟

أدهم: ولنا شخير يُسمَع من سابع جار.

شعبان: ولا يزعج نومنا شيء غير البق!

الوجيه: لا تشعرون بأي قلق؟!

أدهم: من هذه الجهة لا.

الوجيه: طبعًا، ما دام ليس عندكم فدان واحد تخافون عليه، أنتم في راحة تامة، أنتم في حالة استقرار، أما من يملك مائة فدان فإنه يعيش في حالة قلق، لأنه لا يعرف ماذا سيحدث لها غدًا ... لو وثق فقط أنها ستبقى في يده، لكن هذا غير مؤكد.

أدهم: سيادتك تطلب الاستقرار؟

الوجيه: هل عندكم علاج؟

شعبان: العلاج موجود وفي غاية البساطة.

الوجيه: ما هو؟

شعبان: اكتب لنا المائة الفدان التي تملكها، نُصَبْ نحن بحالة القلق وتنعمْ أنت بحالة الاستقرار.

الوجيه (ضاحكًا)**:** حلوة!

شعبان: هذا هو العلاج العملي، ولو أن فيه تضحية منا، لكن واجبنا الإنساني يدفعنا إلى إنقاذك وتعريض أنفسنا ...

الوجيه: دمكم خفيف!

شعبان: والآن ... تسمح سيادتك بالأجرة؟

الوجيه: الأجرة؟!

شعبان: أتعابنا ... أجر العلاج ... نحن وصفنا الوصفة ... تأخذ بها أو لا تأخذ هذا شأنك، الدكتور يكتب التذكِرة والمريض حر يستعمل الدواء أو لا يستعمله، لكن الأتعاب واجبة دائمًا بالكامل.

الوجيه: النكتة تستحق على كل حال ... كم الأتعاب؟

شعبان: ادفع حضرتك حسب تقديرك.

أدهم: ومن جهتنا نحن أيضًا سندفع لك أتعابك إذا قمت بعلاجنا.

الوجيه: علاجكم من ماذا؟ أنتم والحمد لله متمتعون بالاستقرار.

شعبان: استقرارنا متوقف على أتعابك.

الوجيه: يعني إذا دفعت لكم ...

أدهم: نشفى.

الوجيه: تفضلوا ... جنيه يكفي؟

شعبان: خمسة.

الوجيه: خمسة جنيهات؟ أتعابكم؟ وهو كذلك ... تفضلوا ... (يخرج النقود من محفظته) شُفيتم الآن؟

أدهم: نشعر بتحسن كبير.

شعبان (يتسلم النقود)**:** التوريد عندي، أنا صراف الخزينة.

الوجيه: والآن ... ما دمتم شُفيتم على يدي ادفعوا لي إذن أتعابي!

شعبان (يعطيه جنيهًا من الخمسة)**:** تفضل!

الوجيه: جنيه واحد فقط؟

شعبان: كفاية.

الوجيه: أتعابكم خمسة جنيهات وأتعابي جنيه واحد؟!

شعبان: أنت ليس عندك مثلنا مصاريف عيادة، أنت دكتور سرِّيح! لكن هنا شقة لها إيجار وماء ونور وصيانة ونظافة وهلم جرًّا.

الببغاء (في الخارج تصيح)**:** يا سعيد أفندي كلم سيادة المدير ... يا جرجس أفندي كلم سيادة المدير!

الوجيه: ما هذا؟

أدهم: السكرتير الخاص.

شعبان: ومصاريف السكرتير الخاص وأكله و...

الوجيه: عندكم سكرتير خاص؟

أدهم (مشيرًا إلى نفسه)**:** ومدير عام!

الوجيه: تسمحون لي ... ألقي نظرة على الشقة؟

أدهم: الشقة في الواقع ليست ...

الوجيه: لا بأس، المسألة على كل حال أصبحت واضحة ... وأنا تمشيت معكم إلى الآخر لأعرف حقيقة الوضع.

أدهم: نحن قصدنا شريف.

الوجيه: وهل أنا قلت عنكم، لا سمح الله، نصابين أو مهرجين؟! كل ما في الأمر أن أسلوبكم تغلب عليه روح المرح والفكاهة والمداعبة.

أدهم: فعلًا ... نحن لا نملك إلا أسلوب الترفيه والتخفيف عن الزبائن.

الوجيه: أنا معجب بفكرتكم على أي حال ... وأعرض عليكم إذا سمحتم إدخالي شريكًا ثالثًا معكم في هذا ... البنك ... ما رأيكم؟

أدهم: شريك؟!

الوجيه: وممول علاوة على ذلك ... أي إن جميع مصروفات التأسيس أتكفل أنا بها.

شعبان: جميع المصروفات؟! هذا شيء عظيم!

أدهم: هذا عرض لا يمكن رفضه.

الوجيه: في هذه الحالة اسمحوا لي أبدي بعض ملاحظات ... أولًا يجب إخراج مشروعكم من هذا الجحر فورًا ... والانتقال به إلى شقة محترمة، أي إن مركز البنك يجب أن يكون في مكان لائق وموقع مناسب.

أدهم: لكن ...

الوجيه: اطمئن ... عندي شقة خالية في عمارتي بأول حي شبرا نخصصها مقرًّا لهذا المشروع ... ما رأيكم؟

شعبان: عمارتك؟

الوجيه: أظن يحسن أن أعرفكم بنفسي ... وأنا لست غريبًا عنك كثيرًا يا أستاذ أدهم ... نحن بلديات ... وإن كنت لم أرك من قبل ولم ترني ... قال لي زميلك متولي سعد إنك من كفر عنبة ... أظنك تسمع عن عائلة عاطف بكفر عنبة؟ ... أنا منير عاطف.

أدهم: منير بك عاطف؟

الوجيه: وشقيق المرحوم عادل عاطف ... والدك الله يرحمه كان فيما أعلم مستأجرًا في أطيانه.

أدهم: فعلًا ... صحيح.

الوجيه (يخرج من محفظته نقودًا)**:** إليكم مبلغ خمسين جنيهًا ... أرجوكم أن تقتسموها ... مصروفات أولية ... لوازم ملبوسات لكم ونحو ذلك.

أدهم: لا يا منير بك ... لا ... نحن لا نقبل الصدقة والإحسان.

الوجيه: أستغفر الله! ... أنا لم أقصد ذلك أبدًا ... أنا مجرد ممول في مشروع، وأنتم أصحاب الفكرة، والفكرة ستنفذ على نطاق أوسع ... وطبعًا ستتخذ شكلًا آخر أكثر جدية ... وأنا شريك صاحب مصلحة مثلكم في النتائج ... من اختصاصي إذن بصفتي الممول المسئول عن التأسيس أن أقدم ما يلزم من نفقات أولى ضرورية ومنها نفقاتكم الخاصة.

شعبان: تقصد حضرتك أن مظهرنا الخاص يدخل في التأسيس؟

الوجيه: بدون شك، لأن وجودكم في الشقة الجديدة يستوجب ذلك.

شعبان: إذا كان الأمر كذلك لا بأس.

(يتناول منه النقود.)

الوجيه: اتفقنا إذن؟

أدهم: اتفقنا.

الوجيه: على خيرة الله! اسمحوا لي أنا الآن بالانصراف ... وسأتصل بكم قريبًا لأدعوكم للانتقال إلى الشقة الجديدة ... وسأكون قد اتخذت التدابير اللازمة لإنجاح المشروع ... وبالطبع سنرتب معًا بقية التفصيلات عند اجتماعنا القادم إن شاء الله ... إلى اللقاء!

أدهم: إلى اللقاء يا أفندم ... إلى اللقاء وشكرًا.

شعبان: شكرًا ... شكرًا.

(يشيعانه معًا إلى الباب بكل احترام ويعودان كالمجانين من الفرح.)

أدهم: الفكرة يظهر ستكبر وتنقلب إلى جد بحق وحقيق!

شعبان (يلقي بالجنيهات في الهواء ويتلقفها)**:** السماء فتحت علينا وأمطرت نقودًا ... فلوسًا ... جنيهات ... جنيهات!

الفصل الرابع

كانت دقة القدر أو دقة الحظ، عندما طُرِقَ الباب فأيقظ الزميلين القاعدين في شبه نعاس، ليدخل عليهما ذلك الزبون الذي لم يكن يخطر لهما في الأحلام؛ الوجيه الثري منير عاطف بقَضِّه وقَضِيضه، ليعرض عليهما الاشتراك في تأسيس البنك وينثر عليهما الجنيهات، ويمهد لهما سبيل الانتقال من حال إلى حال ... كان أول ما فعلاه وقد صار في حوزتهما خمسون جنيهًا — مبلغ لم يحدث أن اجتمع لواحد منهما دفعة واحدة! — أن فكرا أول ما فكرا في أكلة محترمة ... وفي الحال نزلا معًا إلى شارع محمد علي، وجعلا يستعرضان المطاعم بأنفة وكبرياء! ... هذا مطعم فول وطعمية ... أعوذ بالله! وهذا مسمط كوارع وكرشة ولحمة راس ... اخص! ... وهذا محل سندوتشات ... يغور! ... وهذا مطعم السمك قشر البياض ... يعني! ... كل هذه أكلات قد تناسب من في جيبه خمسون قرشًا لا خمسون جنيهًا!

وخرجا من هذا الشارع إلى شارع عصري به مطعم أنيق، وهمَّا بالدخول، وإذا بأدهم يتردد قليلًا، إنه يخشى التهور، والنقود التي في أيديهما مقصود بها التأسيس؛ أي المظهر اللائق للوضع الجديد. وأدرك شعبان معنى تردده فدفعه دفعًا إلى داخل المطعم وهو يقنعه أن هذه الأكلة اللائقة تدخل أيضًا في باب التأسيس ... وجلسا إلى أول مائدة صادفتهما قرب المدخل وانتظرا الخدمة، وطال الانتظار، وأصبحا كالأيتام في مأدبة اللئام، فخدم المطعم كانوا يحملون الصحاف إلى بقية الزباين ويمرون بهما مر القطارات السريعة بمحطات الأرياف. وفطن أدهم إلى الخطأ الذي ارتكباه، كان عليهما قبل أن يطآ أعتاب مثل هذه المطاعم، بما هما عليه من رثاثة، أن يدخلا أولًا حانوت ملابس ودكان حلاق. وصفق شعبان تصفيق الغاضب المتحدي، محدثًا ضجيجًا لفت النظر، فجاءه خادم يجري وبيده قائمة الطعام، فما إن وقعت عينه على كلمة دجاجة

حتى وضع إصبعه عليها، لقد مضى عليه حين من الدهر كان يعتقد فيه أن الحيوانات المنقرضة هي الدينوصور والدجاج. وتذكر أدهم صورة الدجاجة التي رآها يومًا في ذلك الملهى الليلي أمام ذلك الرجل تاجر المواشي، وكيف أنه كان يلتهمها معه، لكن بعينيه لا بأسنانه، الآن جاءت فرصة الانتقام! ... وانطلقا يأكلان كل ما كانا يشتهيان، وخرجا فاشتريا قمصانًا وبنطلونات، وحَلَقَا، وابتاعا سجاير من أفخر صنف. وحاول شعبان أن يعثر على إعلاناته الملصقة فوجد بعضها قد تطاير واختفى، والبعض في مكانه قد لطخته أيدي الصبية والعابثين، ولم يعد ذلك يعنيهما الآن، فوسائلهما الإعلانية ستكون منذ اليوم قائمة على أساس متين حقيقي بفضل الشريك الجديد. لكن ما الذي حدا بهذا الوجيه أن يدخل معهما في مثل هذه اللعبة؟! إنها أعجبته، هكذا يقول، وليس ببعيد أن يكون قد شم فيها رائحة مشروع رابح، كل هذا سوف ينجلي عندما يدخل الأمر مرحلة الجد.

ومرت أيامٌ أنفق فيها الزميلان كل ما في حوزتهما من نقود، ارتكانًا على عودة الشريك الممول، لكن ما من حسٍّ ولا خبر، وأقلقهما انتظاره الذي طال وامتد. وخامرتهما فكرة اختفائه، كحلمٍ سعيد، سيعقبه استيقاظ على حقيقة خاوية ... لكنهما عادا فاستبعدا هذه الفكرة السوداء. لا يمكن أن يكون هذا الرجل مجنونًا ليأتي ويعطيهما خمسين جنيهًا ويمضي هكذا بلا عودة! ... وصدَق حكمهما، فلم يمضِ يوم آخر حتى طُرِقَ عليهما الباب، وظهر منير عاطف، وزف إليهما خبر المقر الجديد في شبرا، ووصف لهما العنوان، وأعطاهما مفاتيح الشقة بعمارته، وقدم إليهما عقد إيجار باسميهما، طلب إليهما التوقيع عليه وسلمهما إيصالًا باستلامه الإيجار منهما مقدمًا عن سنةٍ كاملة. وفي هذا، كما قال لهما، منتهى الضمان والاطمئنان، وما عليهما الآن إلا الانتقال إلى مقر عملهما في البنك ابتداءً من اليوم التالي ... كل هذا حدث وهما يكادان لا يصدقان ما يجري، أيمكن أن يكون هذا كله حقيقة؟! لو أنه كان مزاحًا لكان أقرب إلى المعقول.

وذهبا في اليوم التالي حسب العنوان، فوجدا عمارة كبيرة في شارع شبرا الواسع المزدحم ... فدخلا وسألا البواب فقادهما إلى شقتهما في الدور الأول، لا حاجة لهما باستعمال المصعد الموجود، ففتح نوافذها وأضاءها فإذا هما في مكان نظيف يشرح الصدر، مدخلٌ رَحْب به مقاعد عديدة ومشاية بساط أحمر، ومرآة فوق شماعة كبيرة، ثم ثلاث حجرات حسنة الرِّياش، كل حجرة بها مكتب عليه أدوات كتابة جديدة، وسَجادة وخوان عليه طقطوقة سجاير وحوله مقعدان من الجلد، فأيقنا أن لكلٍّ منهما حجرته الخاصة، أما الحجرة الثالثة فكانت مثل الحجرتين، وإن كانت في أثاثها أفخم، وعلى

مكتبها يوجد جهاز تليفون وجهاز تسجيل «ركوردر». ويحيط بالحجرات الثلاث شرفة ممتدة تزينها أصص زرع وأزهار، ما هذا العز كله؟! وتركهما البواب متمنيًا لهما طيب الإقامة، وأخبرهما أن البك صاحب العمارة سيمر بهما. وما إن خلا لهما المكان حتى قاما يرقصان، ثم جلسا فوق المكاتب يجربان الوضع الجديد، ثم جعلا يدخلان كل حجرة ويخرجان مبهورَين، ثم عادا إلى المكاتب وانتفخا فوقها وانتفشا، ثم ارتميا في المقاعد الجلد وانجعصا، ثم أطلا من الشرفة على شارع شبرا الواسع بضجيجه وزحامه ومقاهيه. وأرسل أدهم بصره إلى الناس وهي في الشارع تموج ... رجال ونساء وأطفال وشباب وشيوخ ... ما كل هذا الخَلق؟ وكأنه لم ير من قبل شارعًا مزدحمًا بالناس، كل شيء يبدو الآن في عينه جديدًا، حتى الزحام في الطريق اتخذ في مخيلته صورة جديدة.

وسرح بفكره سرحة، وحسب حسبة، وقال في سره: بعد ثمانين عامًا لن يكون أحد من كل هؤلاء المزدحمين في الشارع موجودًا، لا في هذا الشارع ولا في أي شارع آخر في العالم كله، سيكون الموجودون أناسًا آخرين، جيل آخر كامل من الناس هم الذين سوف يزحمون هذا الشارع وغيره من شوارع الدنيا، إذن كل ثمانين عامًا أو تسعين تحدث عملية تفريغ كامل، وتجديد شامل في كافة الشوارع! ... ومع ذلك فالعالم لا يتغير بهذه السرعة ... لماذا؟!

وقفز بذهنه إلى صورة أخرى بعيدة، صورة نوح وسفينته، لقد حدثت مرة حالة تفريغ وتجديد، سريعين هائلين، جاء الطوفان فجرف الناس جميعًا دفعة واحدة، وبقي من اختاره نوح في السفينة، كانت عملية انتخابٍ دقيقة، تخير من كل نوع أنقاه وأرقاه، ولا يدري أحد أي نظام أُقِيمَ على ظهر السفينة، أهو النظام الفاشستي أم الديمقراطي أم الشيوعي؟ ... مهما يكن من أمر فلا خلاف في أن نظام نوح كان غاية في دقته وصلاحيته؛ إذ استطاع أن يبقي كل هذه الجماعات المختلفة في حالة نظام تام، بعيدة عن الفوضى والمجاعة. وغاض الماء وانحسر، وطهرت الأرض من أدرانها، وقُذِفَ بجيل جديد مصفًّى إلى حياة جديدة ... فما الذي حدث؟ طبعًا ما حدث معروف؛ لأن التاريخ موجود، يشهد أن كل شيء عاد إلى ما كان عليه ... لماذا؟ هنا المشكلة! بعد ثمانين عامًا سوف يكون السائرون في شارع شبرا هذا أناسًا آخرين، وربما يلبسون ثيابًا أخرى، لكن ما تحت الثياب وداخل الصدور؟ ... لماذا لا تمتد إليه بحسم وسرعة يد التغيير؟!

واستمر أدهم يسرح ويشطح هكذا وهو ينظر إلى الشارع المائج بالناس، إلى أن نبهه شعبان بصيحاته المزهوة وقوله له، وهو يشير إلى الشارع الكبير تحتهما، إنهما الآن

فعلًا على سطح الدنيا، هنا حقًّا يمكن أن يشعر بوجودهما الناس، ويمكن أن يأتي إليهما زباين، وكان الهواء والنور يملآن الشقة كلها، فتنفس شعبان بملء رئتيه، وتذكر الجحر الذي خرجا منه، والفراش الذي عشش فيه البق، ونظر إلى النظافة حوله وقال: «أظن المبيت هنا غير مسموح به.» ولم يتلقَّ ردًّا، فردَّ هو على نفسه: «طبعًا لا، الشقة كلها مكاتب، معنى ذلك بالمحسوس أن هنا محل عمل فقط لا غير.»

ودق جرس الباب، فأسرعا معًا وفتحاه، وظهر منير عاطف وخلفه البواب، وأشار بيده إلى البواب لينصرف، ودخل هو توًّا إلى الحجرة الثالثة، وجلس إلى المكتب بجوار التليفون، ونظر إليهما لحظة وهما واقفان أمامه ينتظران أن يبدأ بالكلام، لكنه انصرف عنهما، وأمسك بالسماعة وأدار القرص وخاطب شخصًا بكلام لم يفهما مضمونه، ثم أنهى المكالمة، ونهض متجهًا إلى الحجرة الأولى وهما يتبعانه صاغرَين، وأشار إلى أدهم ليجلس إلى المكتب، فجلس دون أن ينبس بكلمة.

المنظر الرابع

(منير عاطف ينظر إلى أدهم وهو على مكتبه الجديد.)

منير: يعجبك هذا المكتب؟

أدهم: عظيم، والشقة كلها عظيمة!

منير (يلتفت إلى شعبان)**:** وأنت يا أستاذ شعبان ... مكتبك طبعًا في الحجرة الثانية.

شعبان: ربنا يخليك ويطيل لنا عمرك!

منير: هذه الشقة كانت في الحقيقة مكتبي الخاص، أحضر فيها من وقت لآخر لمباشرة شئون العمارة وتصريف أعمالي الأخرى، وجدت أني أقدر أتنازل لكم عنها، طبعًا إذا سمحتم أنا محتفظ لنفسي بالحجرة الثالثة، التي فيها التليفون، لكن في إمكانكم استعمال التليفون ... في حضوري وأثناء غيابي ... في أي وقت ... تحت أمركم.

شعبان: يا سلام يا سعادة البك، الشقة كلها شقتك على كل حال.

منير: لا أبدًا، الشقة مؤجرة لكم وباسمكم، وما أنا هنا إلا مجرد ضيف عابر.

أدهم: عابر؟! لا يا منير بك ... أنت الكل في الكل.

منير: أنتم أمام الناس والقانون أصحاب البيت، المسئولون عنه.

شعبان: لكن سعادتك أنت المؤسس لهذا البنك.

منير: هذا كلام بيننا وبين بعض.

أدهم: والشركة الموجودة؟

شعبان: سعادتك أهم شريك.

منير: أنا شريك بالمال، يعني أقدم لكم المساعدات بصفةٍ أخوية. والآن ندخل في العمل، قبل كل شيء أحب أعرف مواردكم المعيشية، هل لكم إيراد أو دخل ثابت؟

أدهم: الواقع أننا ...

شعبان: فعلًا إننا ...

منير: مفهوم ... كنتم إذن معتمدين على هذا المشروع.

أدهم: مضبوط.

منير: في هذه الحالة يحسن أن أنظم لكم أمور معيشتكم ... حتى تستطيعوا التفرغ لعملكم بمنتهى خلو البال، خصوصًا وأن مركزكم هنا في الشقة يقتضي ظهوركم بمستوى معين من ... من حيث المظهر ... ما رأيكم لو خصصت لكل واحد منكما مرتبًا ثابتًا خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر؟

أدهم: خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر؟!

منير: قليل؟

شعبان: نعمة من الله!

أدهم: لكن ... هل سيأتي هذا المشروع بأرباح تساوي؟ ... نفرض أنه لم يأتِ بأرباح تذكر ... أو أتى بخسارة؟

منير: مسألة الأرباح والخسائر هذه نتركها على جنب، لا نفكر فيها إلا آخر السنة.

أدهم: وإذا اتضح أنك أنفقت علينا أكثر من الدخل؟

منير: لن أطالبكم بردِّ شيء طبعًا.

أدهم: تتحمل كل هذه الخسارة؟

منير: هذا شأني، لا تشغل بالك الآن بهذه الأمور.

شعبان: فعلًا لا تشغل بالك الآن يا أخي! ... بشِّر ولا تنفِّر، تفاءل يا أخي تفاءل! ... واترك سعادة البك يتصرف!

منير: نعم ... اتركوني أتصرف ... اتفقنا؟

أدهم: اتفقنا.

شعبان: الاتفاق مقبول طبعًا يا سعادة البك، لكن طبعًا في حالة الأرباح الزائدة عن المنصرف ...

منير: تقصد الزائد عما أنفقته عليكم؟ ... بدون شك، إذا فرض وتحققت أرباح، يكون لكم نصيبكم.

شعبان: يعني لنا مرتب ثابت ونصيب في الأرباح؟

منير: بالضبط، إذا فرض وكان هناك أرباح!

أدهم: بعد خصم المصاريف طبعًا بما فيها مرتباتنا.

منير: طبيعي ... أرجوكم ... اتركوا التفكير الآن في مسألة الأرباح والخسائر هذه ... وأحب أن أنبهكم من الآن إلى عدم المغالاة في تقدير أتعاب، أو مطالبة الزباين بأجور ... أنا أفضل عدم إرهاق الزباين.

شعبان: يعني لا نطالب بأتعاب؟

منير: أفضِّل أن تتركوا الزبون حرًّا يدفع أو لا يدفع.

شعبان: بالنسبة إلى أتعابنا وأتعابه؟

منير: جميع الأتعاب على السواء، لا تهتموا كثيرًا بهذا الجانب المادي.

شعبان: عجيبة! في هذه الحالة المشروع سيأتي حتمًا بخسارة.

منير: أنا وحدي المتحمل لكل خسارة.

شعبان: وما هي المصلحة؟

منير: المصلحة المعنوية، الجانب المعنوي هو الأهم.

أدهم: الجانب المعنوي؟

منير: بالتأكيد ... ترك الناس تتكلم ... أقصد إتاحة الفرصة للزبون يفضي بكل ما في صدره ... يكشف عن بواطن نفسه ... عن أسباب قلقه.

أدهم: هذا كلام جميل، لكن يعني ...

شعبان: لكن يعني ... ماذا بعد ذلك؟

منير: لا شيء، هذا هو كل ما عليكم أن تفعلوه.

أدهم: لكن فكرة البنك هي أن نعالج الزبون ويعالجنا.

منير: دعكم الآن من حكاية العلاج هذه.

أدهم: لكن ...

منير: مجرد استخراج ما في بطن الزبون هو نفسه علاج.

(البواب يظهر.)

البواب: لا مؤاخذة يا بك ... الست مرفت هانم والست خالتها.

منير: آه ... لا بد كانت عند الخياطة.

مرفت (داخلة بسرعة وخلفها خالتها)**:** فعلًا كنا عند خياطتي في العمارة، وقلنا نمر عليك يا عمي كالمعتاد.

منير: أهلًا ... انتظروني في حجرتي هناك ... أنا غيرت الحجرة ... لأن بقية الشقة الآن مشغولة، تنازلت عنها لحضراتهم. (يقدم أدهم وشعبان) الأستاذ أدهم والأستاذ شعبان ... عندهم مشروع مهم ... ربما نتحدث فيه كلنا فيما بعد ... (يقدم السيدتين) ومرفت بنت شقيقي، والست خالتها فاطمة هانم.

أدهم (لمرفت)**:** أنا سبق أن رأيت مرفت هانم وهي طفلة في الرابعة من عمرها.

مرفت: رأيتني وأنا طفلة؟

شعبان (مبهورًا بجمالها)**:** رأيتها وهي طفلة؟! أنت بختك من السما!

أدهم (لمرفت)**:** وكنت تبكين لتركبي حصان البك الوالد.

منير: الأستاذ أدهم من كفر عنبة ... يبقى ابن الشيخ عبد الصمد.

مرفت: لا أذكر أني رأيتك.

أدهم: طبعًا ولا يمكن أن تتذكري، أنت كنت صغيرة، أما أنا فكنت يومئذ طفلًا في العاشرة، وكنا كلنا أطفال القرية ننظر إليك عن بعد وأنت فوق الحصان.

مرفت: حتى حكاية الحصان هذه لا أذكرها جيدًا.

أدهم: كان حصانًا أبيض فيما أذكر، وله بقعة سوداء في جبينه. وكانت يومئذ الست الهانم والدتك ...

مرفت (في لهفة)**:** والدتي؟!

فاطمة (تجذب يد مرفت بشدة خارجة بها)**:** تعالي يا مرفت ... كفاية ... تأخرنا ... نمر عليك في وقت آخر يا منير بك!

منير: وهو كذلك، أنا على كل حال عارف الغرض من الحضور، ما دامت كانت عند الخياطة ... سأجهز المطلوب.

(يشيعهما إلى الباب.)

شعبان (هامسًا)**:** يا سلام على الجمال!

أدهم (يغمزه)**:** هس ... بس! ... اسكت!

منير (يعود إلى مكانه)**:** الخياطة وحسابها ... شيء يطول شرحه!

شعبان: اللهم صل على النبي! مرفت هانم تستحق أعظم خياطة في الدنيا، هي التي تزين الفستان وليس الفستان هو الذي يزينها!

أدهم (يهمس)**:** اسكت يا شعبان!

شعبان: ألا يحق لي أن أمدح الظُّرف واللطف والجمال ... الله جميل ويحب الجمال يا أخي!

أدهم: يا شعبان ليس هذا وقته.

شعبان: هذا هو وقته، أنا أتكلم بمناسبة الخياطة ... وكلام منير بك ... واستنكاره حسابها، وقوله إنه شيء يطول شرحه!

منير: أنا لا أستكثر ... أنا فقط أقرر ملاحظة عامة ... الخياطة والكوافير في عصرنا الحاضر لهما قوانين نافذة على العالم كله ... شرقًا وغربًا ... هل يوجد من يستطيع مخالفة هذه القوانين؟ في أي بلد من البلاد؟!

أدهم: صدقت ... حكومة عالمية.

شعبان: حكومة رعاياها النسوان لا بد تمشي كالساعة، وما على الرجل غير الطاعة!

منير: هذا صحيح.

أدهم: فعلًا ... لو استطاع مذهب سياسي واحد أن يظفر بمثل هذا النفوذ على كل العالم.

منير: على فكرة يا أستاذ أدهم ... نسيت أسألك ... لا تؤاخذني ... أنا سمعت أنك كنت في الاعتقال.

أدهم: متولي سعد قال لك؟

منير: طبعًا، لكن مجرد إشارة عابرة لم يذكر لي تفصيلات.

أدهم: على كل حال لم يكن ذلك بسبب سرقة ولا نصب ولا خيانة أمانة ... لا شيء مما يخدش الذمة والشرف والكرامة.

منير: مفهوم، مسائل سياسية.

أدهم: مجرد آراء.

شعبان: آراء سخيفة وحياتك يا بك!

أدهم: أنا آرائي سخيفة يا شعبان؟

شعبان: أقصد أنها ليست خطيرة حتى لا ينزعج البك يا أخي ... افهم!

منير: ومن قال إني أنزعج؟! بالعكس أنا يهمني أعرف كل شيء على حقيقته.

شعبان: حقيقة الأمر أن أدهم رجل طيب ابن حلال، وأن اعتقاله كان من باب السهو والغلط، وأفرج عنه حالًا في أمان الله.

منير: هذا شيء يسر ... لكن يبقى بعد ذلك سؤال أحب أن أسأله بدون إلحاح، سؤال غير مهم، ولك يا أستاذ أدهم أن ترفض الإجابة.

أدهم: تفضل ... تفضل ... أنا يهمني أن أجيب على أي سؤال.

منير: ما هو موقفك السياسي؟

أدهم: موقفي السياسي؟ أنا ... أنا في الواقع لم أحدده بعد.

منير: أهذا ممكن؟ رجل مثلك كان في الاعتقال بسبب آرائه، كما تقول أنت نفسك.

أدهم: فعلا بسبب آرائي.

منير: إذن لك موقف سياسي محدد.

أدهم: ليس من الضروري.

منير: لا داعي للف والدوران ... قل لي بصراحة يا أستاذ أدهم ... هل أنت مع النظام؟

أدهم: وأنت؟

منير: أنا ... أنا طبعًا مع النظام.

أدهم: وأنا مثلك.

منير: صاحبك متولي سعد قال لي إنك يساري متطرف.

أدهم: وهل هذا ... شيء يخيفك؟!

منير: لا أبدًا ... أنا سيان عندي.

أدهم: ما دام الأمر كذلك فلماذا التحري عن موقفي؟

منير: لمجرد العلم بالشيء، ليس إلا ... ما دمنا سنعمل معًا، من الطبيعي إذن أن يعرف كل منا موقف الآخر.

أدهم: وهل نحن تحرينا عن موقفك؟

منير: موقفي أنا واضح.

أدهم: وضح لنا أكثر، إذا سمحت.

منير: أنا طبعًا ... اشتراكي.

أدهم: اشتراكي برجوازي.

منير: بالضبط.

أدهم: أو برجوازي اشتراكي.

منير: تمام.

أدهم: أو يميني يساري ... اشْتِرَأسِمالي!

منير: ماذا تقول؟

شعبان: أرجوكم ... أرجوكم ... هل هذه التحريات والأوصاف والتعريفات لازمة لعملنا هنا؟ لها دخل بشغلنا؟!

منير: لا يا أستاذ شعبان، وأنا سبق قلت إن كل هذا لمجرد العلم بالشيء، لا أكثر ولا أقل، لمجرد معرفة كلٍّ منا أفكار الآخر، ونحن كلنا في الواقع متفقون، ومن مبدأ واحد، وموقفنا واحد، وكل شيء على ما يرام.

شعبان: اطمئن يا منير بك من جهتنا ... اطمئن!

منير: أنا مطمئن، ومن نعم الله أننا نسير على سياسة كل شيء يمشي مع بعضه ما دام الجميع مع الدولة، ونحن كلنا مع الدولة والحمد لله.

شعبان: أنا أيضًا عندي سؤال ... تسمح؟

منير: تفضل.

شعبان: اشتراكك معنا في هذا العمل ... أقصد البنك ... وتحملك كل هذه المصروفات والنفقات ... بدون توقع أو نظر إلى أي ربح ... أهو مثلًا من قبيل ...

منير: من قبيل ماذا؟

شعبان: من قبيل الهواية مثلًا ... أو شغل الفراغ ... أو ...

منير: لا أبدًا ... هي في الحقيقة مجرد رغبة في ... في الخدمة العامة.

شعبان: الخدمة العامة؟

منير: خدمة إنسانية ... ألم يكن هذا هو هدفكم الأصلي من هذا المشروع؟

شعبان: طبعًا، لكن ... بصراحة نحن كنا ننتظر من ورائه أيضًا شيئًا من الكسب، الكسب المشروع ... كأي عمل آخر أو حرفة تعول صاحبها.

منير: من هذه الجهة أنا ولله الحمد في غير حاجة إلى الاحتراف.

شعبان: إذن أنت تتبرع بمالك لمجرد الفكرة؟!

منير: الفكرة في الحقيقة أعجبتني ... وسبق أن قلت لكم ذلك، دخلتْ مزاجي وسلبتْ لبي ... وكل مال في سبيلها يهون.

أدهم: يا شعبان ... نحن سبق تكلمنا في ذلك ... منير بك حر في ماله، والفكرة تستحق، والمهم أنها وجدت من يتحمس لها ... ما الداعي إذن إلى إعادة فتح باب الكلام في هذا الشأن؟

شعبان: لنكرر الشكر لمنير بك ... أقل منها يا أخي ... رجل يتحمس لفكرة ويتبرع بماله من أجلها ... لا ينتظر من ورائها جزاءً ولا شكورًا.

أدهم: من هذه الجهة فعلًا هو جدير بكل ثناء وتقدير.

منير: أستغفر الله ... أستغفر الله، أترككم الآن ... عندي بعض أشغال أخرى مستعجلة ... إلى اللقاء.

أدهم: إلى اللقاء.

شعبان: مع ألف سلامة!

(يشيعانه إلى الباب ويعودان يفركان الأيدي استبشارًا.)

أدهم: كل شيء يدل على أننا نجحنا.

شعبان: المحير هو أن هذا الرجل متفائل أكثر منا!

أدهم: ولماذا هذا محير؟

شعبان: لأن تفاؤل هذا الرجل يصل إلى حد الهوس! تفاؤلنا نحن مجرد صرف كلام، لكن تفاؤله هو مترجم إلى صرف نقود!

أدهم: وماذا يهمك من هذا الهوس أو الجنون؟! هذا شيء يحسن ألَّا نفكر فيه.

شعبان: أنا الآن لا أفكر فيه.

أدهم: من يدري؟ إن الأفكار الكبرى لا يحققها أحيانًا إلا المجانين!

شعبان: أنا أفكر الآن في شيء آخر.

أدهم: ما هو؟

شعبان: جمال مرفت هذه.

أدهم: لا، ارجع يا شعبان ... ارجع! أنا غير مستعد الآن لهذيانك ... سلام عليكم!

شعبان: إلى أين؟

أدهم: سلام عليكم.

(يتجه إلى الباب منصرفًا.)

شعبان: أوَتتركني هنا وحدي ... خذني معك!

(يسرع خلفه ويخرجان.)

الفصل الخامس

لم يترك شعبان رأس زميله بخير لحظة واحدة، طول الطريق وهما سائران لم يكف عن تصديع رأسه بالحديث عن مرفت التي في حسن القمر، وأدهم يسد أذنيه ويفهمه أن الوصول إليها بقمر صناعي ينطلق من صاروخ لا يؤدي أيضًا إلى نتيجة، فهو سوف يتحطم فوق رمال مجدبة. ودخلا الجحر العامر بدرب الطبالي بشارع محمد علي، فقد تم الاتفاق على أن تكون مواعيد العمل في البنك من الرابعة مساءً حتى العاشرة، لأن فترة الصباح قد يكون الناس فيها مشغولين بأعمالهم. وضمانًا للمحافظة على المواعيد رأي الزميلان أن يقطنا معًا، حتى يكون كل منهما منبهًا ومشجعًا للآخر، فترك شعبان غرفته بالسطح، وقرر مساكنة أدهم بصفة مستديمة، فالشقة وإن كانت جحرًا فهي تسمى شقة، وما دام معهما الآن نقود ففي الإمكان تنظيفها وتحسينها. وأول ما ينبغي عمله هو شراء سرير جديد ومرتبة نظيفة جديدة لشعبان، وأن تخصص له حجرة مستقلة، هي حجرة المكتب، وأن يباع هذا المكتب لتاجر الرابابيكيا، فلا حاجة إلى مكتب هنا، ما دام مقر العمل هناك بعمارة شبرا على المكاتب الفاخرة. وما دام تاجر الرابابيكيا سيشرِّف فليأخذ بالمرة سرير أدهم القديم ومرتبته المرصعة بالبق، ونقوده في جيبه لشراء سرير جديد هو الآخر ... كان منير عاطف قد منح كلًّا منهما مرتب شهر مقدمًا، حتى يستطيعا الانتظام في المعيشة، كل شيء إذن سائر على ما يرام، وما كان كل ذلك ليخطر لهما إلا في الأحلام.

لكن صورة مرفت لا تريد أن تترك شعبان، أما لو ظفر بها ... كانت هذه الأمنية ترعب أدهم ويحسب لها حسابًا، إن الكنز الذي فُتِحَ لهما بابه قد يسده شعبان بحماقته، وحاول أن يثنيه عن هذا المطلب الشائك، فالنساء كثيرات، وإذا شاء اللعب فليلعب بعيدًا عن الشغل. امتثل شعبان على رغمه، وإن كان لم يكفَّ عن اللف والدوران حول سيرة مرفت ... هل هي حرة؟ هل هي متزوجة؟ لا يمكن أن تكون فتاة لم تتزوج بعد، وهي

الآن تقترب من الثلاثين، جميلة ثرية ... إذن هي متزوجة، ومن هو زوجها؟ وأين هو؟ ... ثم خالتها فاطمة هانم هذه بوجهها المكتئب وملامحها الصارمة وذبول المرأة التي جاوزت الخامسة والأربعين؟ ... إنها فيما يبدو ذات سلطان كبير على الشابة الحسناء، فهي عندما أمرتها بالانصراف انصاعت في الحال. وهذا العم منير بك الذي يصرِّف شئونهما المالية فيما ظهر، كان قد قال إن شقيقه عادل عاطف قد توفي، لكن والدتها؟ أين هي؟ وهنا تذكر شعبان أنه عندما جاء ذكرها على لسانه لفظت مرفت، بشيء من الاضطراب، كلمة «والدتي»، وعندئذ أسرعت خالتها بقطع الحديث وأمرتها بالانصراف السريع!

جعل شعبان يثرثر هكذا، وأدهم يصغي أحيانًا ولا يصغي، لكن الموضوع دعاه، بدون أن يشعر، إلى استرجاع الذاكرة. مرت برأسه أطياف بعيدة لأفراد تلك الأسرة، عندما كانوا يمرون بالجرن وقت دراس الأرز، وهو صبي صغير فوق النورج، كان البك الكبير الأنيق عادل يَرِفُّ أحيانًا في عباءة من الحرير الأبيض أو من الصوف الأسود الخفيف، كان وقتئذ في نحو الأربعين، وكانت تسير إلى جواره زوجته وهي يومئذ في الثالثة والثلاثين، كل ما يذكر منها تلك الغلالة البنفسجية حول رقبتها وشعرها، وخلفها أختها الصغرى فاطمة، كانت في نحو العشرين، هيفاء بارزة النهدين، تُرَى دائمًا وفي يدها كتاب، لم تكن قد انقطعت عن مواصلة دراستها. تلك هي هذه الخالة، يا للزمن! كيف يغير الأجسام والملامح! أما منير هذا فلا يذكر أنه رآه من قبل، كانت أرضه في الناحية على بعد خمسة كيلومترات، وكان مقيمًا فيها، وربما كان يتم التزاور بين الشقيقين في فترات لم يكن ليلاحظها صبي في سن أدهم، ولم يكن لزوجة عادل أرض هناك، فقد كان يقال في الناحية إن الثروة ثروة عادل بك عاطف وأسرة عاطف ... تلك هي كل معلومات أدهم التي استخرجها من بين غبار ذاكرته. لكن شعبان يريد الاستزادة، ولا تهمه أي تفصيلات بعيدة عن شخص مرفت، ولم يأخذ أدهم صديقه مأخذ الجد، فهو يعرف أن أمثاله من أزيار النساء لا ينفذ فيهم الحب الحقيقي إلى أعماق دفينة، إنما هو نهم طارئ أمام كل صنف جديد من أصناف النساء، ثم إنه فرصة لموضوع حديث يحب أن يصول ويجول فيه أمثالهم، فليتركه إذن يمضي في ثرثرته، فالكلام لا خطر فيه، وتظاهر بالاستماع إليه وهو مستلقٍ على سريره، لقد رفض شعبان الاقتراب من هذا السرير، وآثر النوم واقفًا أو جالسًا على كرسي الخيزران المثقوب.

وفي صباح اليوم التالي بادرا إلى تنفيذ ما اتفقا عليه من تجديد الشقة، ثم ذهبا لتناول الغداء في مطعم نظيف معتدل، لم يسرفا في الطلب هذه المرة، فأمامهما شهر

كامل عليهما تدبير المعيشة فيه تدبيرًا محكمًا؛ لأن النقود إذا نفدت خلاله فلن يجرؤا على طلب سلفة من هذا الممول الكريم، وهما لم يقوما بعد بأي إنتاج أو نشاط. وما إن وافت الساعة الرابعة حتى كانا في مقر العمل، المحافظة على المواعيد في البداية أمر ضروري، وعند الدخول فوجئا على باب الشقة المحترمة بلوحة نحاسية مكتوب عليها «بنك القلق». وقال لهما البواب إن منير بك كان قد أمر بإعداد هذه اللوحة، كما أمر أيضًا بتركيب لافتة خشبية كبيرة على جدار الشرفة من الخارج، ليراها المارة في الشارع، ولم يكن الزميلان قد خطر لهما ذلك، فلم يرفعا البصر إلى الشرفة وهما داخلان، فهبطا إلى الشارع مرة أخرى ونظرا إليها بزهو، ثم عادا وصعِدا وجلسا، كل إلى مكتبه بوقار كتمثال.

المنظر الخامس

(في مكتب أدهم، وقد دخل عليه شعبان.)

أدهم: لماذا تركت مكتبك وجئت؟

شعبان: جئت أنظر إليك وأنت جالس هكذا بوقار!

أدهم: ولماذا لا تجلس أنت أيضًا على مكتبك بوقار؟!

شعبان: جلست، ولكني مللت.

أدهم: وأنا أيضًا.

شعبان: الجلوس على المكاتب هكذا شيء ممل!

أدهم: جدًّا.

شعبان: إذا كنا نساء كنا جئنا معنا بخيط تريكو وقعدنا نسلي أنفسنا بشغل الإبرة!

أدهم: هنا ليست مكاتب حكومة ... هنا بنك.

شعبان: وإذا لم يحضر زبون لهذا البنك؟!

أدهم: صبرك يا أخي ... الصبر ... الصبر.

شعبان: نصبر ... لكن يعني ... أنت متأكد؟

أدهم: متأكد من ماذا؟

شعبان: من أنه سيدخل عندنا زبون؟

أدهم: بعد هذه الشقة المحترمة ... في هذه العمارة الفخمة ... في شارع شبرا المزدحم ... وهذه اللافتة الكبيرة على الشرفة ... وهذه اللوحة النحاسية على الباب ... وهذا البواب القائم على العتبة ... قلم استعلامات للداخل والخارج، كل هذا ولا يحضر زباين؟!

شعبان: افرض ... افرض ... ماذا يكون موقفنا؟

أدهم: موقفنا مضمون لمدة سنة، أنسيت أن عقد إيجار هذه الشقة لمدة سنة قبض المالك القيمة منا مقدمًا، ومعنا الإيصال؟

شعبان: وماذا نصنع بالشقة! المهم المرتب، هل يستمر يدفع لنا المرتبات مع عدم حضور زباين؟

أدهم: هذا احتمال لا بد أنه فكر فيه وعمل حسابه.

شعبان: عمل حسابه على طردنا وقفل البنك، هذا بالنسبة له أسهل حل.

أدهم: من فضلك لا تكركب بطني!

شعبان: نغش أنفسنا؟! الموضوع كله من أوله لآخره لا يدخل العقل، إلا إذا كان هذا الرجل مصابًا بلوثة في عقله!

أدهم: وهل كنا نحن مصابين بلوثة في عقولنا عندما خطرت لنا هذه الفكرة؟!

شعبان: نحن شيء آخر.

أدهم: تريد أن تقول إننا مجانين أصلًا؟!

شعبان: أريد أن أقول إن جنوننا معقول، لكن عندما تدفعنا الفكرة إلى أن نأتي بناس نتنازل لهم عن شقق فخمة، ونعطيهم عقود إيجار، ونسلم لهم إيصالات ونجلسهم على مكاتب، وندفع لهم مرتبات!

أدهم: يا أخي نحن لسنا مسئولين عن عقول الغير!

شعبان: وهو كذلك.

أدهم: تفاءل ... تفاءل!

(جرس الباب يرن.)

شعبان: الجرس ... زبون!

أدهم: اذهب حالًا وافتح!

شعبان: أنا الذي أذهب وأفتح؟! صراف الخزينة؟!

أدهم: وهل الذي يذهب المدير؟!

شعبان: أمري إلى الله! (ويذهب ويفتح ويصيح) أهلًا وسهلًا! يا ألف مرحب ... الشقة نورت ... الدنيا كلها أنوار.

مرفت (داخلة بسرعة)**:** عمي هنا؟

شعبان (خلفها)**:** سيحضر حالًا ... تفضلي استريحي.

أدهم (ينهض ويقدم لها المقعد)**:** تفضلي يا هانم.

مرفت (تجلس)**:** مِرسي! ... أنا في الحقيقة مندهشة من هذه اللافتة وهذه اللوحة على الباب! ... ما معنى بنك القلق هذا؟! أنا وخالتي كنا نتساءل الآن عن ذلك، ونحن نصعد إلى الخياطة في الشقة المقابلة ... تركتها هناك تجري بروفة على فستان، وحضرت أسأل عمي.

شعبان: تحت أمرك ... نحن نستطيع أن نجيب.

مرفت: قولوا لي إذن! ... ما هي حكاية هذا البنك؟!

شعبان: حكايته طويلة تحتاج لشرح ... إذا سمحتِ ننتقل إلى مكتبي في الحجرة الثانية.

مرفت: وما هو الداعي؟!

أدهم: حقًّا ما هو الداعي يا أخي؟ أليس هنا أيضًا مكتب؟

مرفت: فهموني الحكاية باختصار ... لأني لا أستطيع أن أمكث هنا أكثر من خمس دقايق.

شعبان: خمس دقايق فقط؟! هذا لا يكفي للشرح.

مرفت (تنظر إلى الساعة في معصمها)**:** عشر دقايق.

شعبان: نحن في غاية السعادة بهذه الدقايق، ونسأل الله أن يمد في طولها وعمرها!

مرفت: ادخلوا في الموضوع أرجوكم ... عمي مشترك معكم؟

شعبان: طبعًا ... يعني ...

مرفت: يعني؟

شعبان: يعني بكرمه وفضله وتشجيعه و...

مرفت: المهم ما هي فكرة هذا البنك باختصار؟

شعبان: هي في الواقع فكرة ...

أدهم: أنا أقول لك يا هانم ... باختصار لاحظنا أن كل إنسان عنده شيء يقلق باله ... في ناحية من النواحي.

مرفت: طبيعي.

أدهم: وكل مصاب بالقلق في حاجة إلى علاج.

مرفت: آه ... طب نفساني؟

أدهم: لا أبدًا ... نحن لسنا أطباء، نحن أيضًا مرضى، ومهمتنا أن يفتح الناس صدورهم لنا ونفتح صدورنا لهم، علاج متبادل.

شعبان: وهذا هو الفرق بيننا وبين الطبيب النفساني ... الطبيب النفساني يعتقد أنه هو السليم وأن الناس هم المرضى!

مرفت: تقصدون أن تبادل الشكوى فيها راحة أكثر.

شعبان: تمام يا هانم.

أدهم: لأن المريض عندما يجد طبيبه أكثر منه مرضًا يخف ألمه ويشعر براحة.

شعبان: وعندئذ ينقلب الطبيب إلى مريض والمريض إلى طبيب وبالعكس.

مرفت: شيء غريب!

شعبان: هذه هي كل الفكرة باختصار.

مرفت: لكن ... ما علاقة ذلك بالبنك؟!

شعبان: العلاقة موجودة ... البنك يقرض ويقترض في نفس الوقت ... أليس كذلك؟

مرفت: أظن.

شعبان: نحن أيضًا كذلك.

مرفت: ماذا؟ تقرضون وتقترضون؟

أدهم: لا ... نعالج ونتعالج ... هذا هو أساس التشابه.

مرفت: إذن أنتم مرضى باستمرار؟!

شعبان: طبعًا، ما دام الزبون مريضًا فنحن لا بد أن نكون مثله وأكثر منه!

مرفت: لكن ... عندما يحضر إليكم مريض ... لا بد طبعًا من أن يكشف لكم عن سبب قلقه ... أحيانًا يكون السبب شخصيًّا جدًّا ... كيف يضمن حفظ السر؟

شعبان: الأسرار هنا يا هانم في الحفظ والصون.

أدهم: نحن لا نطالب أحدًا بالكشف عن أسراره الخاصة ... يكفي أن يتكلم كلامًا عامًّا بشكل يريحه.

مرفت (تنهض للانصراف)**:** مرسي! ... أنا أخذت فكرة عن الموضوع.

شعبان: العشر دقايق لم تنته بعد.

مرفت: يجب أن أنصرف ... خالتي منتظرة.

شعبان: لكنك ... لم تخبرينا عن رأيك؟

مرفت: رأيي في ماذا؟!

شعبان: في هذا البنك؟

مرفت: لا أدري ... هل حضر إليكم أحد؟

شعبان: نحن لم نفتتحه بعدُ بصفة رسمية ... لماذا لا تكونين أنت أول من يفتتحه لنا؟

مرفت: أنا؟!

شعبان: إنها لسعادة كبرى لنا أن تكوني أنت أول زبون.

مرفت: ولكني أنا لست مريضة.

شعبان: لا نقصد المرض ... لا سمح الله ... لكن لا بد عندك بالطبع مثل كل الناس ما ... ما يقلق بالك.

مرفت: ليس عندي قلق ... ولكن ربما بعض المضايقات.

شعبان: ونحن في الخدمة ... اطرحي علينا هذه المضايقات!

مرفت: لا.

شعبان: وما هو المانع؟

مرفت: المانع هو أنكم لستم من الطراز الذي يفهم ذلك.

شعبان: نحاول أن نفهم.

مرفت: أقول لك إذن عن مسألة ضايقتني بشكل فظيع.

شعبان: ما هي؟ ... تفضلي قولي ... أنا خدامك!

مرفت: تصور أن سكاندال دي سوار غير موجود على الإطلاق!

شعبان: ماذا؟!

مرفت: سكاندال دي سوار ... ألا تعرف ما هو سكاندال دي سوار؟

شعبان: والله أنا ...

مرفت: بالكلام العربي يعني فضيحة المساء ... غير موجود على الإطلاق في السوق!

شعبان: فضيحة المساء؟! غير موجودة في السوق؟! إن كان على الفضايح فهي تملأ الأسواق!

مرفت: أي فضايح؟ ... أتعرف ماذا أقصد؟

شعبان: لا والله.

مرفت: فضيحة المساء هذا اسم عطر جديد ظهر في باريس ... آخر موضة في العطور عند كارفن ... محل كارفن ... فاهم؟ ظهر من أسبوعين!

شعبان: آه ... لا مؤاخذة!

مرفت: عندما تعلم أنه ظهر من أسبوعين ... ولا تستطيع الحصول عليه، ماذا يكون شعورك؟ ألا ترى أن هذا شيء مقلق للراحة ... مقلق للبال؟

شعبان: طبعًا، شيء مقلق جدًّا!

مرفت: والأدهى والأمرُّ إذا عرفت أن واحدة صديقتي وصلها هذا العطر من باريس ... وأنها تتيه وتتدلل وتفاخر به علينا ... وتغيظنا وتفرسنا وتكيدنا في كل مكان ... شيء يجنن ويطير العقل أم لا؟

شعبان: طبعًا شيء يجنن ويطير العقل!

مرفت: ومع ذلك ... أنا ولا يهمني!

شعبان: ولا يهمك؟!

مرفت: هذه عادتي، كل ما يضايقني أدوسه تحت قدمي ... ولذلك أنا التي أكيد وأغيظ كل صديقاتي بعدم المبالاة.

شعبان: يا بختك!

مرفت: أنا لا أحب أن أعلن شكواي من أي شيء!

شعبان: ما دمت أنت كذلك فاسمحي لي أنا أن أشكو ... أنا مريض ... وأحتاج للمعالجة.

أدهم: اسكت يا شعبان ... ليس هذا وقته.

شعبان: أنا أتكلم بجد ... إذا كان الزبون ليس مريضًا ولا يشكو أي شيء فله أن يعالجنا نحن، أليس هذا هو مبدأ البنك؟ أنا مريض ... والست تستطيع أن تشفيني.

أدهم: أنا فاهمك ... ابعد!

مرفت (تحاول الانصراف)**:** اسمحوا لي.

أدهم: أنا متأسف ... زميلي يحب المزاح.

مرفت: ظاهر عليه.

شعبان: أنا غلطت يا هانم؟ سامحيني!

مرفت: لا أبدًا ... لم يحدث شيء ... أنا مضطرة أنصرف ... لو كان عندي وقت كنت قعدت أكثر ... ربما في فرصة أخرى.

شعبان: وهل نطمع في فرصة أخرى؟

مرفت: ربما.

شعبان: كنت تسألين عن عمك، إنه حتمًا سيحضر هنا بين لحظة وأخرى، لو مكثت معنا خمس دقائق أخرى.

مرفت: لا أريد ترك خالتي تنتظر طويلًا عند الخياطة.
شعبان: أنت دائمًا مع خالتك ... يظهر أنك تحبين خالتك كثيرًا.
مرفت: طبعًا.
شعبان: وطبعًا أولادك ...
مرفت: أولادي؟! ليس عندي أولاد.
شعبان: وزوجك؟
مرفت: ليس عندي زوج.
شعبان: لم تتزوجي بعد؟!
مرفت: تزوجت مرتين.
شعبان: مرتين؟ وماذا حصل؟
مرفت: طلاق.
أدهم: كفاية يا شعبان ... كفاية ... هذا لا يصح بالمرة!
مرفت: دعه يسأل ... يظهر أن عنده حب استطلاع شديد ... لننظر إلى أين يريد أن ينتهي ... اسأل!
شعبان: وتعيشين الآن بمفردك؟
مرفت: مع خالتي ... في منزلنا بالدقي والمنزل به حديقة، والحديقة بها زهر ياسمين على السور ... وهذا الياسمين أبيض اللون ... عندك أسئلة أخرى؟
شعبان: والست والدتك؟
مرفت (تضطرب): والدتي! ... أرجوكم ... عن إذنكم ... أورفوار!

(تنصرف سريعًا.)

شعبان: أنا قلت كلمة غلط؟!
أدهم: أنت زدتها ... وكنت في غاية السماجة والجليطة!
شعبان: انصرفت مضطربة عند سؤالها عن والدتها ... ما له السؤال عن أمها؟!
أدهم: وأنت لماذا تسأل يا أخي؟!
شعبان: كلها أسئلة بريئة ... عادية، ألا تذكر في المرة السابقة عندما جاء ذكر أمها ... كاد يحدث نفس الشيء، لولا سحبتها خالتها.
أدهم: يظهر أنها نقطة حساسة عندها!
شعبان: الأم؟ لماذا؟

أدهم: من يدري؟ هنا فعلًا شيء من الغموض!

شعبان: هي كلها غامضة، وهذا يزيدها سحرًا!

أدهم: دعك من سحرها! ولا تكرر ذلك، وإلا عرضتنا لمشاكل ربما هددت شغلنا ... التفت أنت إلى شيء نافع!

شعبان: وهل هناك أنفع من دخول الجنة ... هذه المرأة هي الجنة!

أدهم: جنة أسوارها شوك!

شعبان: أنا لا أدخل الجنة من فوق الأسوار ... أنا أدخلها من الأبواب ... عندي جملة مفاتيح!

أدهم: مفاتيح مزيفة طبعًا.

شعبان: مفاتيح والسلام! ... ومجربة على كل قفل ... تراهن؟

أدهم: أنا لا أراهن ولا أوافق على هذه الحماقة، وأحذرك يا شعبان، اترك هذه المرأة، نحن لسنا من طراز هذه الفئة!

شعبان: أهذه امرأة تترك؟! بذمتك ... ألا يتمناها أي واحد؟ وأنت يا أدهم ... لماذا لا تجرب حظك؟

أدهم: أنا؟! أنا لا أستطيع أن أعقد صلة بامرأة أشعر أنه لا تربطني بها وحدة تفكير.

شعبان: تفكير؟! ولماذا تريد عقد صلة تفكير بين رجل وامرأة؟!

أدهم: وأي صلة تريد عقدها بين رجل وامرأة؟!

شعبان: الصلة الطبيعية يا أخي! أنت تعقد الأمور بدون لازمة! ومع ذلك ما هي صلة التفكير التي تربط مثلًا ... بيني وبينك؟ أو بيننا وبين منير بك؟!

أدهم: ما يربطنا بمنير بك أنت عارفه، تمويل مشروعنا ... لا أكثر ولا أقل ... أما ما يربطني بك أنت، فأنت أيضًا عارفه.

شعبان: لا، أنا غير عارفه.

أدهم: ألا تعرف ما يربطنا من تفكير؟

شعبان: لا، قل لي ما هو تفكيرنا؟

أدهم: أتجهل ما هو تفكيرك؟

شعبان: أنا أسألك عن تفكيرك أنت؟

أدهم: هذا شيء يحتاج إلى شرح طويل.

شعبان: اشرح لي ... أهو التفكير الذي أدخلك السجن؟

أدهم: ليس الآن وقت الكلام في ذلك ... نحن هنا في مكان عمل، ومن واجبك التركيز في هذا العمل وحده ... إلا إذا كنت تريد فشل المشروع، وتشردنا من جديد!

شعبان: لا ... لا ... أعوذ بالله! أنا ذاهب إلى مكتبي! إلى العمل! ... فليحيَ العمل!

(يخرج سريعًا ... ويترك أدهم على مكتبه في انتظار العمل.)

الفصل السادس

كان جرس الباب الذي يرن من حين إلى حين مخيبًا للآمال، ففي أكثر الأحيان كان رن الجرس بسبب خطأ في الشقة، وعلى الرغم من اللوحة النحاسية فوق الباب، فإن كثيرين كانوا يظنون أنها عيادة طبيب أو مكتب محام أو محاسب ولا يكلفون عيونهم مشقة قراءة اللوحة، وكانت مهمة شعبان المضنية أن يضع أصابعهم على اللوحة قائلًا: «هنا بنك ... بنك.» فإذا قرءوا كلمة «القلق» استغربوا وسألوا وابتسموا وانصرفوا ... ومضت أيام لم يقصدهما زبون ... وبدأ يلعب في عبهما الشك وبوادر اليأس، لولا نشاط منير عاطف المملوء بالتفاؤل، فقد جاء بكهربائي مد سلكًا بين جهاز التسجيل الذي في حجرته رقم ثلاثة إلى الحجرة الأولى والحجرة الثانية، حتى يستطيع وهو في حجرته أن يستمع إلى ما يقوله الزبون الموجود عندهما، كما قام بوضع توصيلة تليفون داخلية على مكاتب أدهم وشعبان، حتى يستطيع الاتصال بهما وهو جالس إلى مكتبه. لماذا كل هذه التركيبات والترتيبات، إلا أن يكون هذا الممول الشجاع واثقًا كل الثقة من حضور زبائن.

وبدأ يعود إليهما الاطمئنان عندما ظهر خبر طريف عن «بنك القلق» في الجريدة التي بها متولي سعد، لا شك أنه نُشِرَ بإيعاز من منير عاطف أو بماله، فعلى الرغم من صداقة أدهم وزمالته لهذا الصحفي فإنه ما كان يجرؤ على نشر سطر واحد عن مشروع كهذا لو أنه بقي في حيِّزه الأول المضحك بتلك الشقة الحقيرة في درب الطبالي، لكن هنا في هذا المكان الجاد بين عيادات الأطباء ومكاتب المحامين والمحاسبين ومحال الخياطات والموضات، كل شيء يصبح جديرًا بالالتفات. وكان من الطبيعي أن يأتي متولي لزيارة المكان الجديد ويرى ما صارا إليه من نعمة، ومر بالحجرات الثلاث متفقدًا، كان ذلك في غيبة منير بك، ثم جلس يخرج لهما مما في جرابه الصحفي من أخبار ومعلومات. إنه من طراز أولئك المخبرين الصحفيين الذين يتنقلون بين الأخبار كالنحلة بين الأزهار، أزهار

البرتقال أو البرسيم، لا يلتصق بمبدأ بالذات أو بمذهب ... ولا يخالط صنفًا واحدًا من الناس، فهو مع كل من يمده بخبر، وعند كل من يجد عنده إشاعة أو كأسًا من الويسكي، وحينما جاء ذكر منير بك قال إنه كان يسهر عنده من ليلتين، في شقته بالزمالك، شقة فخمة بها بار أمريكاني عامر بالويسكي الجيد والمزة الطيبة، يقيم فيها مع خليلته، امرأة رومية كانت عاملة مانيكور عند حلاقه، وهي معه من سنوات بعد أن توفيت زوجته بنت أحد أعيان الريف وأم ولديه، وهو لا يرى الآن ولديه، فأحدهما معيد بكلية هندسة عين شمس وموفد في بعثة إلى ألمانيا، والآخر كان محاميًا شابًّا واعتقل بتهمة الشيوعية قبل ثورة ١٩٥٢ وهو الآن موظف بشركة شل ومقره الإسكندرية.

وبدا هذا غريبًا أن يكون لأسرة عاطف، التي تملك نحو ألف فدان في كفر عنبة منوفية، ابن شيوعي! ... ربما كان ذلك لتكملة الصورة، فقد كان المرحوم عاطف باشا الجَد يرى لذة الهوى والمصلحة في التنقل بين الأحزاب ... إلى أن استقر في حزب الملك فؤاد، أما ابنه منير فانضم إلى حزب الوفد، في حين أن الابن الآخر عادل كان مع حزب الأحرار. وهذا التوزيع نفسه شمل بالطبع تابعيهم من الفلاحين، فكان لا بد للشيخ عبد الصمد أن يكون صوته حرًّا دستوريًّا ويعطيه لعادل بك، كما لا بد لزوج بنته وهو من فلاحي منير بك أن يكون صوته وفديًّا ويعطيه لمتبوعه. وبعد أن وزعت الثورة الأراضي على الفلاحين، ولم يبق لمنير غير مائة فدان، ظهر بمظهر الراضي المحبذ لهذا الإجراء، المتغني بعدالة الإصلاح الزراعي، وجعل يتحكك بالحزب الواحد الموجود؛ الاتحاد الاشتراكي. ولما وجد أن انضمامه إليه رسميًّا أمر متعذر بحكم القانون، اعتبر نفسه منضمًّا بالعقيدة والرغبة في التعاون، وسعى إلى عقد الصلات مع أمناء الاتحاد والمديرين والمحافظين وكل من له سلطة في القرية.

وقد قربوه بالفعل، وأصبح بيته هناك مفتوحًا للجميع، إنه رجل بحبوح. قال متولي سعد إنه عندما أراد أن يُجري تحقيقه الصحفي عن الاتحاد الاشتراكي نزل عنده هناك في بيته الريفي فأكرمه كل الإكرام، وحضر مجلسًا له مع بعض الفلاحين المستأجِرين لأرضه، فوجده يشيد لهم بمآثر الثورة، ويقول لواحد منهم: اسمع يا عبد المقصود، أنا مع الثورة وأحب الثورة، أنا اشتراكي، وكل ما فعلته الثورة خير وعدل وإصلاح ... لكن يعني بذمتك، والشهادة لله، كانت أيامنا سيئة؟! ألم نكن نوزع عليكم الكساوي في المواسم، ونذبح الذبائح في الأعياد، ونجعل الخير عليكم يعم؟ ثم يلتفت إلى متولي ويهمس في أذنه: «إن الثورة المباركة تنفخ في قربة مقطوعة، لأن الفلاحين غير قديرين على الإنتاج، وإن

الإنتاج الزراعي ساء حاله اليوم وتدهور.» ثم لا يلبث أن يأتي من يُبلغه بأرقام المحاصيل عند المستأجرين لديه تلك السنة، فإذا هي مرتفعة، فيلتفت هامسًا: «تصور أن هذا الفلاح الماكر كان على أيامنا يتكاسل ويتغافل، والآن عندما أصبح المحصول له يَكِد ويعمل بيديه وأسنانه!» ثم يفطن إلى نفسه فيعود حالًا إلى الترنم بأمجاد الثورة … لكنه رجل بحبوح، ليس ثقيل الظل، والويسكي عنده جيد والمزة طيبة.

وأراد شعبان أن يجر الكلام إلى مرفت، فهذا الصحفي المنتشر لا يمكن أن تخفى عليه خافية، لكن كل ما كان يعلمه متولي عنها لا يعدو ما سبق لشعبان أن عرفه: والدها تُوفي وكذلك والدتها بعده بقليل، وأنها تقيم مع خالتها العانس وحدهما في منزلها بالدقي؛ فيلًّا بناها والدها وكتبها وأهداها لوالدتها، وقد ورثت عن والدها عمارة في مصر الجديدة، علاوة على ما آل إليها من أرض في كفر عنبة. ووالدها ووالدتها ماتا وهي في السادسة فتولت خالتها تربيتها وتزويجها، تزوجت فعلًا مرتين وطلقت، المرة الأولى أحد رجال السلك السياسي ذهبت معه إلى باريس، فلما نقل إلى شيلي تركته يذهب وحده وطلبت الانفصال عنه … وهنا عقب شعبان بقوله: «لها حق، أمثل هذه تذهب إلى شيلي؟!» فردَّ عليه أدهم قائلًا: «طبعًا لا … إنما تذهب إلى درب الطبالي!» واستطرد متولي يتحدث عن زواجها الثاني من طبيب جراح شاب ناجح، لكنها لم تطق استيقاظه مبكرًا ليجري عملياته في الثامنة صباحًا. وأعطاها شعبان الحق على طول الخط … فالثامنة صباحًا هي بداية النوم اللذيذ عند أصحاب الذوق السليم! ولكن الظاهر أن خالتها فاطمة هانم دللتها كثيرًا على الرغم من صرامة هذه الخالة وقسوتها في حق نفسها، فهي لم تفكر في الزواج، مكرسة حياتها لرعاية بنت أختها اليتيمة، وشغلت فراغها بالقراءة، تلك هوايتها، على عكس مرفت. لكن لماذا ضحت هذه الخالة بحياتها هذه التضحية من أجل بنت أختها؟ قال شعبان: يبدو أن في الأمر سرًّا لا بد أن يجد له مفتاحًا.

ولاحظ الصحفي الخبيث اهتمام شعبان، فنظر إليه نظرة ماكرة، فهمها أدهم وأسرع يغطي الموقف بقوله إن كل ما يعنيهما من الأمر هو محاولة فهم هذه الطبقة، ما هو موضعها الحقيقي في هذا المجتمع المتغير؟ … وهل المجتمع يتغير حقًّا؟ وفي نظر من يتغير؟ وإلى أي مدًى هذا التغير؟ وهل هو حقًّا تغير حقيقي من الداخل؟ أو مجرد مظاهر خارجية؟! … وهز متولي سعد رأسه واكتفى بذلك، وبدا عليه التعب فجأة، فكل ما يخرج عن دائرة الخبر المجرد يجعله يتثاءب … حتى التعليق أو التحليل لخبر من الأخبار يراه شيئًا مملًّا لا طاقة له به، وسرعان ما يحول مجرى الحديث بنكتة أو قفشة وينهض

منصرفًا، وهكذا نهض سريعًا لينصرف، وترك الزميلين وهو يقول إنه سيعود في وقت آخر ليعرف ما يستجد من أخبار البنك.

وجلسا هما ينتظران كالعادة ظهور الزبون، وامتد بهما الانتظار، حتى فقد الانتظار نفسه معناه، وكادا ينسيان أنهما ينتظران أحدًا أو شيئًا.

وإذا بجرس الباب يرن ... فلم يلتفتا إليه، أو التفتا ولم يصدقا ... ولكنه يرن حقًّا.

المنظر السادس

(أدهم جالس إلى مكتبه جامدًا وأمامه شعبان، وجرس الباب يرن.)

شعبان: أهو يرن حقًّا؟

أدهم: أوَتظن أننا نحلم؟

شعبان: وهل هو زبون حقًّا؟

أدهم: هذا ما سنعرفه عندما تفتح الباب.

شعبان: وهل أنا الذي سيفتح الباب؟

أدهم: طبعًا، ومن غيرك؟

شعبان: ولماذا لا تفتح أنت؟

أدهم: لأني أنا المدير.

شعبان: وأنا الصراف.

أدهم: لا يوجد الآن صراف، أُلغيتْ هذه الوظيفة، لأن البك الممول هو الذي يتولى كل الشئون المالية.

شعبان: إذن لا يوجد أيضًا وظيفة مدير.

أدهم: كيف ذلك؟

شعبان: لأن البك الممول هو الذي يتولى أيضًا الإدارة العامة، وما أنت إلا موظف هنا، مقرك الحجرة رقم واحد.

أدهم: وأنت كذلك على هذا الاعتبار مجرد موظف آخر مقرك الحجرة رقم اثنين.

شعبان: تمام، أي لا فرق بيني وبينك، ولذلك عندما يرن الجرس واحد منا يفتح.

أدهم: أنت، لأنك رقم اثنين، وأنا رقم واحد، ورقم واحد مفضل على رقم اثنين.

شعبان: الرن سكت، يظهر أن الزبون انصرف.

أدهم: طبعًا، ما دمنا أضعنا الوقت في زحلقة الشغل، كل منا على الآخر، ابتدأنا نعمل شغل موظفي الحكومة.

شعبان: الحق عليك أنت يا أخي، اسمع الكلام الجد، تعال نوزع الاختصاص بيننا بالعدل.

أدهم: وهو كذلك، مسألة الباب ... الذي يسمع الرن أولًا يذهب ويفتح.

شعبان: لا ... يفتح الله ... أنت من الآن لن تسمع شيئًا ... ستكون دائمًا أطرش!

أدهم: ولماذا لا يكون أنت الذي ستدعي دائمًا الصمم والطرش؟!

شعبان: أحسن طريقة نترك الباب مفتوحًا ... وهذا هو المعقول، أيوجد بنك يغلق بابه في أوقات العمل؟

أدهم: صدقت، نترك الباب مفتوحًا هذا فعلًا من شيمة البنوك.

شعبان: مسألة الباب حُلَّتْ، ندخل في اختصاص العمل.

أدهم: اختصاص العمل نتركه لظروفه، فمثلًا إذا دخل عندي زبون في موضوع عويص لا أسلك فيه أحوله عليك.

شعبان: ومن جهتي نفس الشيء طبعًا.

أدهم: طبعًا، على شرط الذمة والأمانة والنية السليمة.

شعبان: بالنسبة للطرفين.

أدهم: اتفقنا.

(جرس الباب يرن.)

شعبان: الجرس! ... أنا متبرع بالفتح هذه المرة لأثبت لك النية السليمة وسأترك الباب مفتوحًا حسب الاتفاق.

أدهم: شكرًا.

(يذهب شعبان لفتح الباب ... ثم يعود برجل في نحو الخمسين يخطو بتردد.)

الزبون: مساء الخير!

أدهم (ينهض مستقبِلًا): أهلًا وسهلًا ... تفضل ... (يقدم له المقعد) شرَّفْت ... سيجارة؟ سجاير يا شعبان!

شعبان (في نبرة احتجاج): نعم؟! رجعنا؟! (يخرج في الحال).

الزبون: لا، متشكر ... أنا لا أدخن.

أدهم: قهوة؟

الزبون: لا ... أرجوك لا لزوم ... أنا ... في الواقع كنت مارًّا في الشارع وقرأت اللافتة «بنك القلق» ... ترددت في الدخول، وفعلًا بعد أن صعِدت وضربت الجرس رجعت ونزلت، ثم فكرت قليلًا واستخرت الله، وصعدت مرة أخرى إليكم.

أدهم: خيرًا.

الزبون: الأمر وما فيه يا سيدي ... هل أستطيع أن أتكلم عما يقلقني؟

أدهم: طبعًا، تفضل، هذا عملنا.

الزبون: ربما وجدت عندكم المشورة ... لن أطيل ... بكل اختصار أنا لي ابن في الثامنة عشرة من عمره، كان مثال الطالب المجتهد، نجح بتفوق وامتياز في الإعدادية وكان من العشرة الأوائل للقطر كله، وفي هذا العام تقدم إلى الشهادة الثانوية العامة، لكن مع الأسف وقع في حب فتاة ... بنت الجيران، وتعلق بها إلى درجة التدله، بل إلى حد الذهول عن نفسه وعن مستقبله، وبالفعل رسب رسوبًا شنيعًا، هو الذي لم يعرف الرسوب قط ... وهو الآن يعيد السنة، لكن ما يقلقني هو أنه يعيدها ويعيد معها نفس المأساة، وقد نصحته كثيرًا، لكن ما به أقوى من النصح، وهو نفسه مقتنع تمامًا بكل ما أنصح به، وهو أعلم مني بسوء حاله، وأشد شعورًا بأنه يضيع نفسه، ولكنه مستمر، لأنه غير قادر على التخلص مما هو فيه.

أدهم: إذن أي كلام معه لا ينفع.

الزبون: لا ... لا ينفع مطلقًا ... تعبنا من الكلام، قولوا لي ماذا أفعل؟

أدهم: هون عليك! ... أنا أيضًا في صباي كنت مثل ابنك هذا بالضبط، حدث لي نفس ما حدث له ... بالحرف.

الزبون: وكيف كانت النتيجة؟

أدهم: كما ترى.

الزبون: أرى على الأقل أنك تحمل شهادة عليا.

أدهم: لا أبدًا مع الأسف، لم أفلح في الدراسة.

الزبون: هذا شيء غير مطمئن؟

أدهم: ترى أن حالتي غير مطمئنة؟

الزبون: العفو ... أنا لا أقصدك ... أنا أقصد ابني.

أدهم: ابنك فاجأه الحب في وقت غير مناسب، كالبهلوان الذي تفاجئه عطسة الزكام وهو سائر على الحبل!

الزبون: والعمل؟

أدهم: أمره لله! ... وليرحمه المولى عز وجل!

الزبون: ألا يوجد حل؟!

أدهم: لعنة الله على الحب وسيرة الحب! هذا في الحقيقة ليس من اختصاصي، اذهب إلى الحجرة رقم اثنين!

الزبون: الحجرة رقم اثنين؟

أدهم: نعم ... صنف الحب ومشتقاته هناك، عند زميلي في الحجرة الثانية ... تفضل عنده!

الزبون (ينهض)**:** شكرًا!

(يخرج ... ولا تمضي لحظة حتى يظهر زبون ثانٍ في الخامسة والثلاثين نشيط الحركات.)

الزبون ٢: تسمح؟

أدهم: تفضل.

الزبون ٢: أنا كنت في الحجرة الثانية والأستاذ هناك حولني على حضرتك هنا.

أدهم: أهلًا وسهلًا.

الزبون ٢: الموضوع باختصار أني قرأت ...

أدهم: اللافتة التي على الشارع.

الزبون ٢: بل الخبر المنشور في إحدى الجرائد، وأعجبني أن تُوجَد جهة مختصة بالقلق، الواقع أنا في غاية القلق، لا بسبب حالة خاصة ... بل للحالة العامة التي نعيشها، هذه الرجعية التي حولي، هذا المجتمع الرجعي الذي أتنفس فيه ... تصور سيادتك ... ولا بد أنك لاحظت ... أبسط شيء ... برامج الإذاعة والتليفزيون مثلًا ... تصطبح فيها على شيخ مطمطِم وتمسي فيها على شيخ مطمطِم ... ونسمع ونشاهد بين كل فقرة وفقرة ندوات وموضوعات ومناقشات دينية أكل عليها الدهر وشرب.

أدهم: ولكن الدين ضروري لهذا المجتمع.

الزبون ٢: التقدم أيضًا ضروري، وما يقلقني هو أني أشعر أني لا أعيش في مجتمع تقدمي بالمعنى الحقيقي.

أدهم: هذا شعورك؟!

الزبون ٢: وأنت سيادتك ألا تشعر نفس الشعور؟

أدهم: أحيانًا، لكن على كل حال المسألة لا تدعو إلى القلق، لكن اسمح لي أولًا أسألك لماذا حولتك الحجرة رقم اثنين إلى هنا؟!

الزبون ٢: قال لي الأستاذ هناك إن الزندقة بكافة أنواعها من اختصاص سيادتك.

أدهم: الزندقة؟! قال لك هذا؟!

الزبون ٢: بالحرف الواحد.

أدهم: وهل أنت زنديق؟

الزبون ٢: وأرحب بهذا الوصف.

أدهم: لكني أنا ... لا أرحب أن يقال عني ... ولا تؤاخذني ...

الزبون ٢: هل أنت مع التقدمية أو الرجعية؟

أدهم: اسمح لي من فضلك ... ما هو الذي تريده بالضبط؟

الزبون ٢: أريد القضاء على كل تفكير متخلف ... أريد عملًا حاسمًا عنيفًا يفسح الطريق أمام كل فكرٍ تحرري تقدمي ... إن مستقبل العالم هو في هذا الاتجاه ... ويجب أن ينقلب مجتمعنا ونصبغه صبغة جديدة حقيقية، فهمت قصدي؟

أدهم: لكن كيف؟ ... بأي الوسائل؟

الزبون ٢: بكافة الوسائل ... المهم قبل كل شيء هو إجراء عملية إيقاظ لعقل المجتمع.

أدهم: الموضوع خطير.

الزبون ٢: طبعًا.

(جرس التليفون يرن.)

أدهم (يرفع السماعة)**:** آلو ... أفندم ... سيادتك؟ ... آه سيادتك وصلت من الباب المفتوح ... سمعت؟ ... آه الركوردر ... و... ماذا؟ ... آه مفهوم ... تريده حالًا ... وهو كذلك، سأرسله فورًا ... (يلتفت إلى الزبون ٢) تسمح.

الزبون ٢: نعم.

أدهم (وهو يضع السماعة)**:** تفضل هناك في الحجرة رقم ٣.

الزبون ٢: رقم ثلاثة؟!

أدهم: نعم ... الحجرة الثالثة ... موضوعك يهم رقم ثلاثة.

الزبون ٢: شكرًا.

(يخرج ... ولا يمضي قليل حتى يظهر زبون ثالث في يده سبحة.)

الزبون ٣: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

أدهم: وعليكم السلام ورحمة الله ... تفضل!

الزبون ٣: أنا كنت مارًّا في الشارع.

أدهم: مفهوم، وقرأت اللافتة المعلقة.

الزبون ٣: تمام، هذا ما حصل.

أدهم: أفندم؟

الزبون ٣: قلت أدخل لأزيح عن نفسي الكابوس الجاثم على صدري.

أدهم: الكابوس؟

الزبون ٣: نعم هذا الإلحاد المتفشي في البلد ... أنا كل يوم أستيقظ في الفجر، أتوضأ وأصلي وأستغفر الله لهذا المجتمع الملحد، الذي نعيش فيه، هذا الجو المتحلل الذي نتنفسه حتى استبد بي القلق على مصير هذه الأمة المؤمنة ... تصور يا سيدي الإذاعة مثلًا ... بين كل أغنية وأغنية أغنية ... وانظر إلى التليفزيون تجد كل مذيعة ومذيعة وكل مطربة وراقصة مثل لهطة القشدة، والعياذ بالله، ما هذه المغريات يا أخي ... إلى أين نحن مساقون؟!

أدهم: أنت فيما يظهر رجل شديد التدين.

الزبون ٣: جدًّا، وأشعر بمنتهى القلق على مستقبل الدين.

أدهم: الدين بخير يا سيدي، اطمئن.

الزبون ٣: أطمئن؟! كيف يمكن الاطمئنان والبلد بهذا الحال؟ ... لا بد من عمل حاسم.

أدهم: عمل حاسم؟!

الزبون ٣: عمل قوي يزيل من على وجه الأرض هذا الضلال، إن نار الله الموقدة يجب أن تُصَبَّ صبًّا على مجتمع بهذا الفجور والإثم والكفر المبين.

أدهم: يا ساتر!

الزبون ٣: هذا القلق الذي عندي وعند كافة المؤمنين ... وأنت لا شك منهم ... أليس كذلك؟

أدهم: طبعًا، لكن ... على كل حال شئون الدين من اختصاص الحجرة رقم اثنين ... تسمح تشرف هناك!

الزبون ٣: الحجرة رقم اثنين؟

أدهم: نعم، الحجرة المجاورة.

الزبون ٣: وهو كذلك (ينهض).

(جرس التليفون يرن.)

أدهم (يرفع السماعة)**:** آلو ... أفندم ... آه سمعت؟ ... أرسله هو أيضًا ... حاضر ... سأرسله حالًا ... (يضع السماعة ويلتفت إلى الزبون ٣) تفضل حضرتك في الحجرة رقم ثلاثة.

الزبون ٣: قلت لي رقم اثنين.

أدهم: حصل تعديل، موضوعك يهم رقم ثلاثة.

الزبون ٣: وهو كذلك، شكرًا.

(يخرج ... ولا يلبث أن يدخل شعبان.)

شعبان: ما هذه الأصناف يا أخي؟!

أدهم: ما لها؟!

شعبان: أصناف تحير.

أدهم: أصناف المعاملات! ... البنك بدأ أعماله بحق وحقيق ... وأنواع العملة في القلق من كل لون بدأت في الصادر والوارد؟

شعبان: لكن أنا بصراحة ... محتار ولايص في هذه الشغلة!

أدهم: الحال من بعضه!

شعبان: أنت أيضًا لا تجد ما تقوله لهؤلاء الناس؟!

أدهم: ولا كلمة مفيدة استطاعت أن تخرج من رأسي، يظهر أن المسألة ليست سهلة كما كنا نتصور!

شعبان: بالاختصار نظرية البنك ظهر أنها كلام فارغ!

أدهم: بل ظهر أن دماغنا هو الفارغ!

شعبان: معنى كلامك أننا نقفل البنك ونعود إلى حالة التشرد؟!

أدهم: وهل في إمكاننا حتى أن نقفله؟ الشقة باسمنا لمدة عام، ومرتباتنا مدفوعة مقدمًا لمدة شهر، ولم يظهر حتى الآن أن الممول اشتكى من شيء، بالعكس، يظهر أنه هو بدأ يأخذ الشغل بجد!

شعبان: على رأيك، نعمل إذن ما نقدر عليه والسلام.

أدهم: وهل أنت عملت أي شيء حتى الآن؟ كل الحكاية زبون وحولته عليَّ أنا.

شعبان: وأنت؟ ألم تحول عليَّ أنا زبونك؟!

أدهم: على كل حال منير بك الممول حمل عنا زبونين ... بناء على طلبه تليفونيًّا، ولا بد أنه طلب منك أنت أيضًا.

شعبان: لم يحصل بعد.

أدهم: والزبون إياه ... القلِق على غرام ابنه؟

شعبان: عندي في الحجرة ... وأنا متحير في شأنه!

أدهم: ألم يطلبه منك منير بك؟

شعبان: أبدًا، ولا سأل عنه.

أدهم: يظهر أنها حالة لا تثير اهتمامه!

شعبان: ماذا أقول لهذا الأب المسكين؟ حب المراهقين هذا لا يقدر عليه إلا الله!

أدهم: اسمع يا شعبان ... ألا تذكر أن منير بك كان قد اقترح تعديل الفكرة؟ ... وقال لنا: دعكم من التركيز على مسألة الحل والعلاج؟! ولا تطالبوا أحدًا بالأتعاب؟

شعبان: نعم، قال ذلك.

أدهم: إذن المهمة أصبحت بسيطة، ما دام الزبون غير مطالب بأتعاب، ونحن غير مطالبين بتقديم العلاج ... فلنقصر عملنا على مجرد الاستماع.

شعبان: وما الذي يستفيده الزبون؟

أدهم: يستفيد أنه وجد جماعة متفرغين لسماعه.

شعبان: تظن يعني ... أن هذا ...

أدهم: هذا وحده عمل نافع ... أؤكد لك ... هناك أحيان كثيرة يضيق فيها صدر الإنسان لكتمان ما في نفسه، ويريد الكلام بحريته، ويحتاج إلى مجرد شخص واحد يستمع إليه.

شعبان: إذا كان على الاستماع هذا شيء نقدر عليه.

أدهم: والآن ... هيا إلى العمل ... بكل تفاؤل!

شعبان: يعني أنا أسكت، والزبون يتكلم ... وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، أي إن الفضة من نصيب الزبون والذهب من نصيبنا!

أدهم: وهذا هو بالضبط عمل البنك ... كل بنك!

شعبان: تمام ... تمام ... إلى العمل إذن.

(يخرج إلى مكتبه.)

الفصل السابع

كانت الفيلَّا التي تقطنها مرفت وخالتها في الدقي مكدسة بالرياش، ليس فقط لأن مرفت في زواجها الأخير أضافت أثاثًا إلى أثاث، ولكن لأنها هي نفسها من رواد المزادات، ما من مزاد مشهور إلا وتوجد فيه، مع صاحبات لها ممن يبحثن مثلها عن التظاهر، وعما يضيعن فيه فراغ فترة الصباح، وإن لم تجد أحدًا يرافقها ألحت على خالتها فتذهب معها مرغمة، إما إلى مزاد أو سينما أو ملهًى من ملاهي الليل أو مباراة من مباريات كرة القدم، لكن هذا لا يحدث إلا نادرًا، فهي قلَّما تَعدِم معارف من طرازها يلازمونها في أكثر الأوقات.

في ذلك الصباح كانت مترددة بين الذَّهاب إلى النادي تجلس مع شلة الدردشة، وبين اللف على الدكاكين، وأمسكت بسماعة التليفون كالعادة تسأل صاحباتها السؤال الروتيني: «إيه البرجرام النهار ده؟» كل ذلك وعين خالتها الجالسة في الركن ترمقها من فوق صفحة كتاب في يدها، وتسائل نفسها عن مدى مسئوليتها في دفع مرفت إلى هذا النوع من الحياة؟ إنها لا يمكن أن تكون مسئولة عن فشلها في الزواج، فهي لم تختر لها الأزواج، مرفت نفسها كانت هي التي تختار في كل مرة، كانت تقول إنها استلطفت وأحبت ولا بد لها من الاقتران بمن أرادت، وبنفس الطريقة تقول بعد ذلك إنها أخطأت وزهدت ولا بد لها من الانفصال عمن تزوجت! ... أيكون التدليل هو المسئول؟ لكن هل كان في استطاعتها ألَّا تدللها؟ هناك في أعماق نفسها أسباب كثيرة تدعوها إلى تدليل مرفت، لو كانت الأم هي التي تولت تنشئتها أما كان من الممكن أن تصبح خيرًا من ذلك؟ ربما ... لو كانت الأم في حالة تسمح لها بتولي أمر ابنتها، إن ستارًا كثيفًا بينهما كان لا بد أن يقوم على أية حال.

لكن هل التنشئة هي وحدها المسئولة، أو أن شيئًا ما أثر في أعصاب هذه البنت منذ تلك الليلة المشئومة؟! ومع ذلك فلا توجد أي أعراض تدعو إلى استشارة طبيب، ولا ينبغي فتح هذا الباب حتى لا يكون هناك اضطرار إلى الكشف عن أسرار يجب أن تظل دائمًا في طي الكتمان. ربما كان المطَمْئِن في الأمر أن مرفت نفسها لا تشعر بأي شيء غير طبيعي في حياتها أو شخصها أو سلوكها، وإن كان هناك قلق فهو قلق الخالة، إنها تقرأ وتفكر وتلاحظ هذه الحياة الضائعة التي تجهل مرفت نفسها أنها ضائعة، ولطالما فكرت في أن زواجًا ثالثًا قد يصلحها، لكن مرفت مصرة على غلق باب الزواج نهائيًّا، حتى باب الحب. لقد عرفت الحب، كما تقول، بما فيه الكفاية، هذا لا يمنع من أنها تصادق من حين إلى حين من تستلطفه وتنشئ معه علاقة ثم تتركه إلى غيره وهكذا … لكن هذا لم يعد يعني من ناحيتها أي ارتباط، لم يعد شيء يربطها بشيء، وهذا هو ما يخيف خالتها، وإن كان يعزيها قليلًا أن مرفت ليست الوحيدة، فهي واحدة من ضمن فئة تعيش نفس هذه الحياة … غاية اهتماماتها آخر نكتة وآخر إشاعة وآخر موضة! حاولت الخالة مرات أن تثبِّت قدمي مرفت على أرض صُلبة، لكن الجواب كان هز الكتفين، كانت تغريها أحيانًا بالتشبه بأمها، وتشير لها إلى صورة الأم في إطارها المذهَّب بالجدار: «كان لأمك مثل أعلى.» هذه الكلمة تبدو الآن غريبة في مجتمع هش، ليس بداخله إيمان حقيقي بشيء أكثر من اقتناص المغانم!

وهذه الخالة وإن كانت تعيش الآن في نعمة، فإنها ما زالت تذكر الطبقة البسيطة التي خرجت منها هي وأختها الكبرى. كان والدهما معاون إدارة المركز، لا يتجاوز مرتبه خمسة عشر جنيهًا، إلا أنه عُنِيَ بتربيتهما في المدارس، كانتا مواظبتين على الدراسة، دون أن تقعدا عن الكد الذي نشأتا عليه في شئون المنزل، كل شيء كانتا تقومان به بيديهما، شغل البيت كله من طهو وكنس وغسل وكَيٍّ في أوقات الفراغ، لإراحة أمهما المريضة دائمًا، ثم تفصيل الثياب التي تذهبان بها إلى المدرسة، كدح مستمر لم ينقذهما منه إلا المصادفة التي تحدث في الحواديت. لمح عادل بك أختها الكبرى وهي في السابعة عشرة بقرب المركز في انتظار أبيها، راقت في عينه، وأرادها زوجة له رغم القيامة التي قامت في أسرته، صمم وانتصر، وبهذا انتقلت الأخت الكبرى إلى حياة جديدة، ولحقت بها أختها فاطمة عندما ماتت أمهما المريضة وتبعها الوالد المتقاعد. منذ ذلك اليوم تم التحول الخطير في مصير فاطمة.

وليته كان مجرد تحول، لكنه انتهى إلى مأساة، ليست فقط المأساة التي جعلت منها عانسًا، لكنها المأساة التي أشعلت هذا البيت كله، ولم تكن مرفت ليلة المأساة قد جاوزت

السادسة، وهي لا يمكن أن تحيط منها إلا بظاهرٍ عابر لا يمَس الصميم، وقد أُخْفِيَتْ عنها الحقائق بإحكام، عنها وعن الناس جميعًا، حرصًا على مستقبلها، وهي الآن قد قاربت الثلاثين، ولا تعرف شيئًا عما حدث أكثر مما أُرِيدَ لها أن تعرف. كل شيء يسير في نظرها طبيعيًّا، لكن خالتها قلقة، وقلقها يشتد يومًا بعد يوم، إلى أن كان يوم خطر لها خاطر، وهي في طريقها إلى الخَيَّاطة، وقد وقع نظرها على اللافتة «بنك القلق»، إنها هي الأخرى لم تكن تنظر إليها أول الأمر بعين الجد، وعندما ذهبت مع مرفت إلى الشقة في المرة الأولى لمقابلة منير بك، لم تحفِل بأدهم وشعبان، وهما يُقدَّمان إليها على أنهما شريكان أو مساعدان لمنير في مشروع من مشاريعه، لكن ما معنى هذا المشروع المقترن بكلمة «القلق»؟ وأي نوع من القلق؟ ... وهل يمكن أن يكون له نفع في حالة مثل حالتها؟

المنظر السابع

(أدهم في مكتبه ... والباب يدفع.)

(يظهر شعبان في حركة سريعة.)

شعبان: أنت الذي حولت عليَّ فاطمة هانم؟

أدهم: طبعًا.

شعبان: طبعًا طبعًا، لو كانت مرفت كنت استبقيتها لنفسك، لكن على رأي المثل «لو كان فيها خير ما كان رماها الطير»!

أدهم: دعك من هذه الأفكار السخيفة، أنا حولتها عليك لأني لا أريد أن أدخل في مسائل خاصة بهذه الأسرة، ولو كانت هي مرفت ذاتها كنت حولتها عليك كذلك.

شعبان: حقيقي؟

أدهم: ثق من ذلك، والأيام بيننا.

شعبان: فهمت، أنت تتحاشى هذه الأسرة باعتبار أنهم من بلدكم و...

أدهم: افهمها كما تفهمها، المهم ابعدني عن هذا النوع من الزباين، وعلى فكرة ... ما هو الذي تريد أن تعرضه عليك؟

شعبان: لم أسألها بعد، أنا تركتها الآن في حجرتي، وأردت أطلب لها قهوة ولكنها رفضت، واستأذنت منها لحظة وجئت إليك، وأنت بالطبع لم تسألها.

أدهم: لا ... بمجرد أن قالت إن عندها مشكلة خاصة تقلقها لم أجعلها تفتح الموضوع، وقلت لها إنك أنت المختص بالمشكلات الخاصة، ومدحت لها طبعًا في كفاءتك المزعومة!

شعبان: المزعومة! على كل حال تُشكر ... وربنا يوفقني أكون عند حسن ظنك.

أدهم: وحسن ظنها هي.

شعبان: بالطبع، هذا هو الأهم ... تعرف أنك في الحقيقة خدمتني!

أدهم: خدمتك؟!

شعبان: بتحويل هذه الست إليَّ أنا ... إنها هي المفتاح.

أدهم: المفتاح؟

شعبان: إلى الأخرى ... ألا تذكر قولي لك إن في جعبتي مفاتيح لهذه الأمور؟ اسمع كلام مجرب! عندما تكون أمام امرأتين متلازمتين، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وتريد الوصول إلى الصغيرة، ابدأ بالكبيرة!

أدهم: تريد أن تقول ...

شعبان: ولا كلمة الآن ... هذا سر المهنة! ... أتركك الآن لأباشر مهام أعمالي الناجحة بإذن الله ... إلى اللقاء!

أدهم: تصرف بعقل ... أرجوك!

شعبان: لا تخف ... أخوك في منتهى حسن التصرف!

(يخرج سريعًا.)

أدهم: ربنا يهديك!

(يظهر على الباب زبون رابع.)

الزبون ٤: ممكن أدخل؟

أدهم: تفضل ... أهلًا وسهلًا!

الزبون ٤: أنا ...

أدهم: أفندم ... في الخدمة!

الزبون ٤: ضروري أقدم نفسي؟

أدهم: لا أبدًا ... هذا غير ضروري، نحن لا نطالب بأي بيانات شخصية، احتفظ باسمك، قدم لنا فقط الموضوع، موضوع القلق الذي عندك؟

الزبون ٤: أنا ... بعضهم نصحني باستشارة طبيب نفساني ... والبعض أكد لي أني لست مريضًا ... الحكاية كلها أني متحمس زيادة عن اللزوم.

أدهم: متحمس؟! يا ساتر ... خير؟

الزبون ٤: هو حقيقة تحمس عنيف!

أدهم: في ... سياسة؟!

الزبون ٤: لا ... لا ... في الكرة ... أنا زملكاوي، أقصد من حزب الزمالك.

أدهم: آه ... الحمد لله! حزب الزمالك! ... أحزاب أهون من أحزاب!

الزبون ٤: ستقول لي وماذا في ذلك؟

أدهم: فعلًا ... ماذا في ذلك؟

الزبون ٤: أقول لحضرتك ... ما من مرة حضرت فيها مباراة بين الزمالك والأهلي إلا وأحدثت كارثة!

أدهم: كارثة؟ من أي نوع؟

الزبون ٤: أشرح لك، وكل هذا والله رغم عني، لأن المكتوم في نفسي انفجر! حصل مرة أن الزمالك كاد في الشوط الأخير يصيب الهدف، لولا اصطدام الكرة بخشبة المرمى، لم أطق، ولم أشعر بنفسي، وإذا يدي التقطت شيئًا، لم أفطن إذا كانت عمامة أو كاسكيت، فوق رأس الشخص الذي بجواري، وقذفت بها في الهواء وسط الملعب ... وبالطبع حدث هياج حولي وخناقة، خصوصًا وقد اتضح أن صاحب غطاء الرأس هذا الذي طار في الهواء هو حيوان أهلاوي.

أدهم: بسيطة على كل حال.

الزبون ٤: وفي مرة أخرى تحمست لهدف عظيم أحرزه الزمالك، فلم أشعر إلا ويدي قد تناولت طفلًا صغيرًا من حجر أمه الجالسة بجواري ورفعته في الهواء و...

أدهم: وقذفت به في الملعب؟!

الزبون ٤: لا، من حسن الحظ أدركوني ... ولكنهم أشبعوني لطمًا وشتمًا ... وأنا أصرخ ... هذا شيء غصب عني يا ناس!

أدهم: بالطبع.

الزبون ٤: وأخيرًا كدت أقتل رجلًا!

أدهم: تقتل؟!

الزبون ٤: أهلاوي مغفل ... جعل يناقشني ويتحداني ويستفزني ويقول إن الأهلي هو الأصل وإن الدهن في العتاقي ... وكلام فارغ من هذا القبيل ... كان في جيبي وقتها مطواة كبيرة، ما أشعر إلا وقد أخرجتها وفتحت سلاحها وهجمت به عليه.

أدهم: وطعنته؟

الزبون ٤: توسط بيننا أولاد الحلال، ونصحوني أن أعرض نفسي على طبيب. لكن بصرف النظر عن كل شيء ... هذا الوغد الأهلاوي أما كان يستحق؟

أدهم: يستحق لكن ...

الزبون ٤: لا تؤاخذني ... سُهِي عليَّ أسألك: أنت من أي حزب؟ هل أنت زملكاوي أو أهلاوي؟

أدهم (بسرعة)**:** زملكاوي طبعًا.

الزبون ٤: إذن أنا شخص طبيعي؟

أدهم: بكل تأكيد، كل الناس يتحمسون للكرة ... وما من أحد قال إنهم مرضى، كل ما في الأمر أنك تنفعل قليلًا، وأن هذا الانفعال يضعك أحيانًا في مواقف محرجة.

الزبون ٤: أنا بغير هذا الانفعال أشعر أن حياتي راكدة، أنا لا أريد الذَّهاب إلى طبيب، حتى لا يعطيني مهدئات لأن هذا هو ما سيفعله، تذهب إلى الطبيب فيقول لك: توتر أعصاب، ويكتب لك المهدئ. أنا يا سيدي متحمس، ويجب أن أتحمس لوجهة نظري، لمبدئي، لعقيدتي، لماذا تريد إطفاء حماسي؟

أدهم: لا يجوز.

الزبون ٤: قل لي: مُتْ أحسن! لأن هذا موت ... أن أكتم تحمسي! أنا طاقة يا سيدي ... طاقة ... أريد أن أقف وسط الملعب وأصيح بملء فمي.

أدهم: هذا من حقك.

الزبون ٤: ومن حق جميع المشاهدين، وأنت أيضًا ولا شك تصيح في كل المباريات.

أدهم: أنا لا أذهب كثيرًا إلى المباريات، لي زميل هنا أجدر مني بالخوض معك في هذا الموضوع، لكنه الآن مشغول.

الزبون ٤: ولماذا لا تذهب ما دمت تقول إنك زملكاوي؟

أدهم: مشاغلي.

الزبون ٤: لكن المباريات دائمًا يوم العطلة الأسبوعية.

أدهم: أنا شخصيًّا لا يناسبني الانفعال الشديد.

الزبون ٤: حالتك الصحية؟

أدهم: شيء كهذا، ولأسباب أخرى!

الزبون ٤: إذن أنت لا تتحمس لشيء؟

أدهم: التحمس الشديد فيه خطورة.

الزبون ٤: على صحتك، مفهوم لكن … حياتك بهذه الطريقة تصبح على وتيرة واحدة، أنت طاقة يا سيدي … ماذا تفعل بهذه الطاقة؟

أدهم: والله في الواقع إنها … إنها أسلم طريقة … وأنا معك … أنت نبهتني إلى مسألة حيوية، منذ اليوم ستجدني معك في كل المباريات … ومع استبعاد المطاوي والسكاكين ورمي العمم والأطفال سأكون إلى جوارك أهتف وأصيح بأعلى صوتي … هات يدك … اتفقنا؟

الزبون ٤ (يصافحه)**:** اتفقنا.

أدهم: أنت أقنعتني بمسألة الطاقة هذه.

الزبون ٤: ألم أقل لك؟ أنت طاقة مكبوتة يا سيدي.

أدهم: الحمد لله إنك عالجتني أحسن علاج.

الزبون ٤: يظهر أني حضرت في الوقت المناسب.

أدهم: فعلًا، وكان الواجب أعطيك أتعابك.

الزبون ٤: أتعابي؟

أدهم: بالطبع، ما دمت عالجتني فأنت مستحق لأتعاب، لكن مع الأسف العلاج هنا أصبح مجانًا بالنسبة للطرفين.

الزبون ٤: أنا لم يخطر ببالي أي أتعاب، ولا حتى أني سأقدم لك أي خدمة.

أدهم: أنت قدمت لي خدمة جليلة، فعلًا أستطيع إخراج الطاقة التي عندي بهذه الطريقة المأمونة … شكرًا يا سيدي شكرًا.

الزبون ٤: العفو … أنا سعيد بهذه النتيجة … وأشعر براحة تغمر نفسي، داوم يا سيدي على حضور المباريات.

أدهم: سأنفذ نصيحتك بالحرف … وسأهتف وأصيح.

الزبون ٤: نهتف معًا ونصيح.

أدهم: بملء الأفواه والحناجر.

الزبون ٤: إلى اللقاء في الملعب.

أدهم: إلى اللقاء!

(يشيعه إلى الباب ... ويعود إلى مكتبه.)

أدهم (لنفسه)**:** زملكاوي ... أهلاوي ... زملكاوي ... أهلاوي.

شعبان (يدخل)**:** قل لي يا أدهم ...

أدهم: قل لي أنت أولًا ... أنت زملكاوي أو أهلاوي؟

شعبان: ما هي المناسبة؟

أدهم: أجبني أولًا ... زملكاوي أو أهلاوي؟

شعبان: أهلاوي طبعًا.

أدهم: يا خبر! ... أهلاوي؟! الحمد لله خلصت بجلدك!

شعبان: ماذا تقول؟

أدهم: كان هنا الآن زبون ... لو سمعك لكانت مصيبتك ثقيلة!

شعبان: دعنا من هذا ولندخل في الجد ... فاطمة هانم التي عندي ...

أدهم: ما لها؟

شعبان: المسألة خاصة بمرفت، وطبعًا هذا شيء يسرني ... وبودي أطلب منها أن تجمعني بمرفت، ولكني متردد، لأول مرة أتردد، خفت أثير شكوكها، ما رأيك أنت؟ هل أسير في خطتي الأولى وأَقَوِّي صلتي بفاطمة هانم أولًا ... أو أنتهز الفرصة وأتصل بمرفت مباشرة.

أدهم: رأيي أن تسير في خطتك الأولى وتقوي صلتك بالخالة ... هذا أضمن، لأنك لن تملك عواطفك، وعندئذ ينكشف أمرك بسرعة، وتخسر كل شيء.

شعبان: لك حق، يجب السير خطوة خطوة ... بحذر شديد، على كل حال عمل علاقة مع فاطمة هانم فيها مكاسب مؤكدة!

أدهم: مع التمسك بالحكمة!

شعبان: إن شاء الله.

(يخرج مسرعًا.)

(يظهر بالباب زبون خامس في سن الكهولة.)

أدهم: تفضل! ... أهلًا وسهلًا!

الزبون ٥: أنا في الواقع ... قرأت اللافتة ...

أدهم (يشير إلى مقعد)**:** تفضل! ... استرح!

الزبون ٥: وقبل ذلك كنت قرأت خبرًا طريفًا في إحدى الجرائد ... وبالطبع كلمة «القلق» لفتت نظري ... أنا وإخواني على القهوة ... وخصوصًا كلمة «بنك» ... قلت إن الناس أدركوا أخيرًا أن القلق عملة جارية الآن يلزم لها بنك!

أدهم: بدون شك.

الزبون ٥: أنا يا سيدي الفاضل مثل كل الناس أقرأ الصحف وأسمع الإذاعات، وأصبح رأسي الآن تطير فيه الصواريخ العابرة للقارات، وتلف فيه الأقمار الصناعية، وتقوم الثورات وتدور المعارك، والبيض يضطهدون السود، والرأسمالية تدمغ جبين كل من أراد التحرر من استغلالها بختم الشيوعية، والكرة الأرضية كلها تنطلق بنا في الفضاء حول الشمس وفي جوفها قنبلة زمنية، وكلنا نعيش يومنا ولا نعرف ماذا سيكون غدنا. كل هذا في رأسي، وأشرب في اليوم عشرين فنجان قهوة، لأضع بها فرامل في دماغي الطائر، لكن بدون جدوى، بماذا تشير عليَّ في هذه الحالة يا سيدي؟

أدهم: سيادتك تشكو إذن من قلق عام؟

الزبون ٥: أيوجد الآن قلق عام وقلق خاص؟ لقد اختلط هذا بذاك، وأصبح الواحد منا يتخبط اليوم في بحر واحد من قلق شامل لا يطاق، ألا توافقني على ذلك؟

أدهم: طبعًا أوافقك، أنا نفسي مثلك تمامًا، ورأسي هو الآخر انقلب إلى طبق طائر!

الزبون ٥: وآخرة هذا الحال؟

أدهم: هذا يتوقف على نوع عملك ... ما هو عملك في الحياة؟

الزبون ٥: أنا لا عمل لي ... عندي منزل موروث، عبارة عن ثلاثة طوابق، أسكن في طابق، وأؤجر الطابقين بأربعين جنيهًا بعد التخفيض، تكفيني أنا وزوجتي المدبرة، وليس لنا أولاد.

أدهم: أليست لك هواية؟ ... الكرة مثلًا؟

الزبون ٥: الطاولة وقراءة الصحف في القهوة، وخبط حجر الطاولة في الدماغ مثل خبط الأخبار المزعجة سواء بسواء.

أدهم: من رأيي أن تكثر من خبط الطاولة وتقلل من خبط الأخبار!

الزبون ٥: أهذا هو الحل؟

أدهم: هذا على كل حال هو الحل عند الشباب اليوم، أغرقوا أنفسهم في كل بلاد العالم في خبط الجاز والروك آند رول والخنافس وما شابه ذلك من ألوان الضجيج والحركة العنيفة والأصوات المزعجة! ... ليواجهوا خبط الكبار في ضجيج الحرب والقمع والمؤامرات والمخابرات! صخب عام في حانة كبرى، ضمت الكبار والصغار، وإن اختلفت أدوات الزياط وألوان الخمر!

الزبون ٥: حانة الكرة الأرضية السكرانة!

أدهم: ربما كان سبب قلقك أيضًا ناحية خاصة قليلًا ... هو هذا المنزل الذي هو عماد حياتك المعيشية ... ربما خطر بفكرك مثلًا أنه لو زلزلت الأرض من تحته لأي سبب من الأسباب ...

الزبون ٥: صدقت، هذا صحيح.

أدهم: أنا أيضًا مثلك، طالما شعرت بالأرض تزلزل تحت قدمي!

الزبون ٥: هل عندك منزل؟

أدهم: لا ... الزلزال عندي من نوع آخر.

الزبون ٥: عندك إذن أطيان؟

أدهم: ليس عندي إلا هذا البنك القلق!

الزبون ٥: وكم يدر من الإيراد؟

أدهم: ولا مليم!

الزبون ٥: وكيف تعيش إذن؟

أدهم: بالمصادفات.

الزبون ٥: حياتك إذن غير مستقرة؟

أدهم: لا يمكن أن تستقر.

الزبون ٥: أنت إذن في حالة قلق مستمر؟

أدهم: بدون شك.

الزبون ٥: لهذا إذن فتحت هذا البنك.

أدهم: نعم، لأتعالج ... بسماع متاعب الآخرين.

الزبون ٥: حقًّا ... قد يكون في هذا بعض الراحة لك.

أدهم: أليست حالتي أشد من حالات غيري؟

الزبون ٥: الواقع أنك ... معذور.

أدهم: أنا على كل حال صابر وصامد، المهم عندي أن أجد وسيلة أخفف بها عن نفسي.

الزبون ٥: أليست لك هواية؟

أدهم: لا، مع الأسف.

الزبون ٥: خسارة! من رأيي أن تشغل نفسك بهواية ... إنها خير وسيلة للتخفيف عن النفس.

أدهم: وأين أجد الهواية؟

الزبون ٥: هذا سهل جدًّا ... تعلم لعب الطاولة!

أدهم: ومن يعلمني؟

الزبون ٥: أنا مستعد أعلمك!

أدهم: متى؟

الزبون ٥: في أي وقت يعجبك ... مر علينا بالقهوة ... قهوة البودجا تجدني هناك دائمًا ... صباحًا ومساء.

أدهم: وهو كذلك ... اتفقنا.

الزبون ٥: اتفقنا ... أنا في انتظارك ... إلى اللقاء ...

(ينهض ويخرج.)

أدهم: إلى اللقاء ... قريبًا جدًّا إن شاء الله ...

(يشيعه إلى الباب.)

أدهم (يعود إلى مكانه مترنمًا)**:** شيش جهار ... شيش بيش!

(يظهر بالباب زبون سادس رجل في زي العمال.)

أدهم: تفضل ... أهلًا وسهلًا!

الزبون ٦: أنا ... أقدر أتكلم مع حضرتك.

أدهم: طبعًا ... تفضل ... استرح.

(يشير إلى المقعد.)

الزبون ٦: أنا عندي حالة قلق من أسبوع ... بسبب ظرف أحب أقول لحضرتك عنه ... وأستشيركم.

أدهم: أنا في الخدمة ... تفضل!

الزبون ٦: الأمر وما فيه أني عامل في مصنع نسيج بشبرا، لي زميل في العمل طبعه الإهمال والكلفتة ... فتلة غزل تتعقد يتركها ... نصحته ولكنه يقول لي: «اسكت ولا يهمك.» وأخيرًا لمحته وهو يكسر سرًّا أحد أسنان المشط الذي يمر فيه الغزل حتى تنفذ منه العقد التي يتركها ... وهنا لم يستطع ضميري السكوت فهددته بكشف أمره فاتهمني بالوشاية، ماذا أفعل؟ ... أسكت ويظل الإنتاج ينخفض مستواه، أو أشكوه فأكون قد وشيت بزميل؟

أدهم: وزميلك هذا فاقد الذمة في العمل إلى هذا الحد؟!

الزبون ٦: إنه يقول إن عقدة أو عقدتين لا تهم.

أدهم: وأنت؟ لماذا لم تفعل مثله؟

الزبون ٦: لا أستطيع، العمل عندي لا بد يأخذ حقه ... والدي المريض في البيت — أنا الآن الذي أعوله — كان صانع كراسي، وكان يتعب في الكرسي ويقول لي وأنا صغير: إتقان العمل متعة وفريضة، متعة لنفسك وفريضة أمرنا بها ربنا، والنبي — عليه الصلاة والسلام — قال: «إن العبد إذا عمل عملًا أحب الله أن يتقنه.»

أدهم: هذا كلام جميل.

الزبون ٦: تمام، ولو عملنا به كلنا لما كان هذا حالنا، وهو لا يكلفنا شيئًا كثيرًا.

أدهم: قل لزميلك!

الزبون ٦: قلت له، ولكنه كان يدير لي ظهره وينغمس مع زملاء آخرين يتناقشون.

أدهم: يتناقشون في ماذا؟

الزبون ٦: في الأرباح.

أدهم: الأرباح؟

الزبون ٦: نعم، مواعيد صرفها والأنصبة التي ستوزع والنسب، وكلام من هذا القبيل.

أدهم: وهل الكل سيحصل على نفس الأرباح؟ ... المتقن والمفسد؟

الزبون ٦: من الصعب في كل الأحوال إمكان فرز هذا من ذاك، لكن كل واحد وضميره.

أدهم: ضميره؟! وإذا كان الضمير مصنوعًا من المطاط؟

الزبون ٦: المطاط؟!

أدهم: مادة خام متوفرة عندنا ولله الحمد!

الزبون ٦: في هذه الحالة ماذا يكون موقفي؟ ... أسكت؟!

أدهم: تسألني أنا؟ ... اذهب واكشف أمره!

الزبون ٦: وأتعرض للإشاعة أني من الوشاة؟! لا أحب أن أوصف بالواشي الخسيس الذي لا يقدر الزمالة والروح الاشتراكية، هكذا سيقال عني ... شخص غير اشتراكي!

أدهم: اسمع ... أنت رجل منتج ... وتفهم في الإنتاج ومستوى الإنتاج أكثر مني ... أنا شخصيًّا ليس لي أي قيمة إنتاجية، أنا أقرب إلى أن أكون من العاطلين ... من الكسالى ... من الطفيليات.

الزبون ٦: أنت يا سيدي؟!

أدهم: نعم أنا ... ولا يغرك أني جالس إلى مكتب وأمامي تليفون!

الزبون ٦: لا تقل هذا!

أدهم: هذا هو الواقع ... ما أنا إلا واحد من ستين في المائة من السكان لا يفعلون شيئًا، أو على الأقل لا ينتجون إنتاجًا حقيقيًّا، ويعيشون على جيب الأربعين في المائة الأخرى، ومن هذه الأربعين في المائة خمسة في المائة معهم نقود ولا عمل لهم إطلاقًا، يتبقى خمسة وثلاثون في المائة يعملون وينتجون، منهم خمسة وعشرون في المائة ينتجون بغير إتقان، يكون الباقي أخيرًا بعد كل ذلك عشرة في المائة فقط من السكان هي التي تعمل وتنتج بإتقان.

الزبون ٦: عشرة في المائة فقط؟

أدهم: فقط، عشرة في المائة هي التي ينطبق عليها الحديث الشريف الذي ذكرته أنت الآن: «إن العبد إذا عمل عملًا أحب الله أن يتقنه.»

الزبون ٦: هذا غير مصدَّق!

أدهم: طبعًا أنت لا تصدق، لكن خذ عندك مثلًا هذه الشقة التي نحن فيها، إنها تحتوي على ثلاث حجرات فيها ثلاثة أشخاص يمكن أن تقول إن إنتاجهم للبلد صفر في المائة، فإذا مررت على كل شقق هذه العمارة وتحريت عن سكانها ما وجدت أكثر من عشرة في المائة ينتجون بإخلاص وإتقان، والباقي عالة عليهم، أو يعملون أعمالًا تافهة، غير منتجة، أو على قدر المزاج، حتى بواب العمارة تراه يعمل ساعة ويزوغ ساعتين إلى المقهى المجاور يشرب الشاي ويدردش كلمتين!

الزبون ٦: لكن ... هذه النسبة يجب أن ترفع.

أدهم: إذا رفعت هذه النسبة ... ولو عشرة في المائة أخرى ... فإن بلادنا تتغير ... تغيرًا حقيقيًّا ... لا يمكن تصور مداه ولا مستواه!

الزبون ٦: أزمتنا إذن أزمة إتقان.

أدهم: أنت طبعًا أدرى.

الزبون ٦: وأزمة أخلاق.

أدهم: هذا يؤدي إلى ذاك.

الزبون ٦: صحيح، أزمة الإتقان مرجعها إلى أزمة الأخلاق.

أدهم: نعم، مرجعها ما في الداخل، ما في داخلنا ... وأخيرًا ... ماذا نويت؟

الزبون ٦: أنا جئت أستشيرك؟

أدهم: أظنك أدركت أني لا أستطيع أن أشير عليك ... أنت قلتها... المسألة مسألة أخلاق ... وأنا أخلاقي كما قلت لك ليست كما يجب ... تصرف أنت إذن حسب ما ترضى عنه أخلاقك!

الزبون ٦ (ينهض)**:** وهو كذلك ... شكرًا!

(يصافح أدهم ويخرج.)

شعبان (يدخل هاتفًا)**:** يا للنسوان! المرأة هي المرأة في كل سن وكل زمان!

أدهم: ماذا حصل؟

شعبان: فاطمة هانم.

أدهم: نجحت معها؟

شعبان: وأي نجاح!

أدهم: تكلم بدون مبالغة ولا مغالاة ولا فشر ولا معر! ... قل ما حصل بموضوعية تامة!

شعبان: بموضوعية تامة أقول لك إني أفهمتها أن أمر مرفت غير مقلق، لأنها واجهت حظها مرتين ووضعها طبيعي، لكن القلق الحقيقي يجب أن يكون عليها هي، وأن الإصرار على حياتها هذه القاسية الصارمة، مع أنها لم تزل فيها حيوية ونضارة، هو الذي يجب التفكير فيه.

أدهم: واقتنعت؟

شعبان: هي تركتني وهي مشغولة البال بكلامي، ووعدت بالاتصال بي مرة أخرى، عندما طلبت إليها ذلك.

أدهم: وهل هذا هو كل النجاح؟

شعبان: طبعًا، لا تنتظر من سيدة في مركزها أن تهتز بسرعة ... يكفي أن ألاحظ، وأنا الخبير في هذه المسائل، أن شيئًا من الاحمرار قد دب في وجنتيها.

أدهم: على كل حال المهم أن تصرفاتك تكون على مستوى رفيع؟

شعبان: مستوى رفيع؟

أدهم: أنا عارفك وعارف أساليبك، وهي في ظروفنا الحاضرة تحتاج إلى شيء من التهذيب.

شعبان: اسمع يا أدهم ...

أدهم: اصبر حتى أوضح لك.

شعبان: أنا لا أصبر على كلامك الفارغ، أنا حر في أسلوب عملي. وأنت حر في أسلوب عملك، لا تتدخل في شغلي ولا أتدخل في شغلك!

أدهم: شغلي وشغلك؟! أهذا الذي تفعله وأفعله اسمه شغل؟!

شعبان: وما اسمه إذن؟!

أدهم: بيني وبينك ... بذمتك وضميرك ... من أنت ومن أنا؟

شعبان: يعني إيه؟!

أدهم: يعني ... ماذا نساوي؟

شعبان: نساوي؟! أصحاب بنك يا أخي!

أدهم: بنك القلق! ... قل لي يا شعبان ... بصراحة ... أنت تعرف القلق؟

شعبان: وهل هذا سؤال؟! شيء نشتغل فيه ولا أعرفه؟!

أدهم: دعك من حكاية الشغل هذه ... أنا أسألك باعتبارك إنسانًا ومواطنًا ... يعني بصفتك بني آدم ... هل سبق لك أن شعرت حقًّا بالقلق؟

شعبان: طبعًا يا أخي ... وإلا ما كنت فكرت في إنشاء بنك بأكمله من أجله!

أدهم: أنت لم تفكر في ذلك، أنا صاحب الفكرة.

شعبان: وأنا شريكك، شريك مؤسس.

أدهم: فليكن ... هل تعتبر أن هذا عمل حقيقي؟

شعبان: بكل تأكيد.

أدهم: اسمح لي أشك.

شعبان: ما هذا التخريف؟ تشك الآن بعد أن أصبح حقيقة واقعة ... له مكاتب وتليفونات وشقة مؤجرة باسمنا، وزباين يدخلون ويخرجون؟

أدهم: يدخلون ويخرجون!

شعبان: بدأ النشاط يدب في البنك ... ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ألم تكن هذه هي أحلامنا؟ ... ها هي الأحلام تحققت.

أدهم: بودي أن أصيح صيحة في هذا البنك ... يسمعها كل من في الشارع.

شعبان: لا ... أرجوك ... اعقل!

(يظهر بالباب زبون سابع أنيق في فمه بيبة.)

الزبون ٧: تسمح؟

أدهم (ناهضًا)**:** تفضل ... تفضل أهلًا وسهلًا!

شعبان: أذهب أنا إلى حجرتي.

(ينسحب خارجًا.)

أدهم (يقدم المقعد للزبون)**:** أهلًا وسهلًا!

الزبون ٧: اسم طريف «بنك القلق» وإن كنت لا أعرف تمامًا ما يرمي إليه ... ولذلك جئت أستعلم.

أدهم: الفكرة باختصار أننا هنا نتيح لكل من عنده قلق من شيء أن يفضي به ... ربما كان في مجرد الإفضاء راحة لنفسه.

الزبون ٧: فكرة طيبة، هل نجحت؟

أدهم: لا بأس.

الزبون ٧: وهل يمكن أن يفضي الإنسان بكل ما يريد؟

أدهم: ولم لا؟

الزبون ٧: أعتقد أن هذا متعذر في بعض الأحيان.

أدهم: طبعًا، أحيانًا.

الزبون ٧: لو كان الإنسان يستطيع أن يطلق صوته ويصيح بما في نفسه ... لكن هذا الآن غير ممكن.

أدهم: ما هو المانع؟ سيادتك مثلًا ... هل عندك شيء تريد أن تفضي به؟

الزبون ٧: أنا لا أتكلم عن نفسي، أنا أتكلم عمومًا ... كل إنسان في حاجة إلى أن يتكلم وأن يصيح وأن يوافق وأن يعارض.

أدهم: إذن خذ راحتك! ... أنت مطلق الحرية تتكلم وتصيح وتوافق وتعارض كما تشاء.

الزبون ٧: أين ذلك؟

أدهم: هنا في هذه الحجرة.

الزبون ٧: آه ... لا ... أنا لا أقصد هذا ... أنا أقصد بصفة عامة ... أنت فاهمني طبعًا.

أدهم: طبعًا فاهمك ... تريد أن تصيح ... أنا أحيانًا أشعر برغبة ملحة في الصياح.

الزبون ٧: حقًّا؟!

أدهم: بدون شك، وأشعر برغبة عارمة في أن أعارض أي رأي وأشاكس أي فكرة وأشاغب أي إنسان ... بل إني عندما لا أجد شيئًا أعارضه، أعارض أفكاري أنا ذاتها.

الزبون ٧: طبعًا ... مفهوم ... الإنسان حيوان ثرثار قارض للأفكار.

أدهم: قارض للأفكار؟!

الزبون ٧: مثل الفأر ... الفأر حيوان قارض ... لا بد أن يقرض شيئًا ... أحيانًا قطعة خشب ... لمجرد استخدام جهازه القارض، وهو أسنانه ... الإنسان أيضًا لا بد من استخدامه جهازه القارض، وهو تفكيره، وكما قلت أنت عندما لا يجد شيئًا فإنه يقرض أفكاره ذاتها ... ويجب أن يَسمع لقرضه صوتًا في صورة صياح.

أدهم: فعلًا ... هذا يحدث أحيانًا.

الزبون ٧: هل تعرف حديقة هايد بارك في لندن؟

أدهم: سمعت عنها.

الزبون ٧: كان يحلو لي دائمًا عندما كنت هناك أن أمشي في هذه الحديقة وأصغي إلى صيحات الخطباء المنطلقة بلا قيود في أرجائها.

أدهم: حديقة الحيوانات الثرثارة القارضة للأفكار.

الزبون ٧: بالضبط ... أسبق لك الذهاب إلى هناك؟

أدهم: لا.

الزبون ٧: لو سمعت ما يقال في هايد بارك لدُهِشْت ... واحد يصيح مطالبًا بفصل أسكتلندة عن إنجلترا، وواحد يطالب بطرد الأسرة المالكة، وواحد يطالب بتصفية المستعمرات، وواحد يريد تأميم الممتلكات، وواحد يشيد بالإمبراطورية، وآخر يريد تدمير الأسلحة الذرية ... وهلم جرًّا.

أدهم: مثل هذه الحديقة لا يمكن أن توجد إلا في إنجلترا، لأن الله أنعم على الإنجليز بنعمتين: الأولى البرود الإنجليزي، والثانية أنهم يقولون ما لا يفعلون!

الزبون ٧: ربما ... لكن ...

أدهم: لكن ماذا؟

الزبون ٧: لكن اعترف معي أن فكرة إيجاد مكان للتنفيس ...

أدهم: منطقة حرة للصياح؟

الزبون ٧: إذا شئت.

أدهم: رئة يخرج منها الزفير الفاسد!

الزبون ٧: خير من أن يكتم.

أدهم: هذا هو جوهر فكرة هذا البنك.

الزبون ٧: نعم، ولكني أقصد ... شيئًا على نطاق أوسع.

أدهم: تقصد ...

الزبون ٧: نعم.

أدهم: تقصد ماذا؟

الزبون ٧: أظنك فهمت.

أدهم: أنا! لا، لا، لم أفهم شيئًا.

(جرس التليفون يرن ... يرن.)

أدهم (يسرع إلى رفع السماعة)**:** آلو ... نعم ... آه ... تريد إرساله حالًا ... حاضر ... سأرسله في الحال ... (يضع السماعة ويلتفت إلى الزبون السابع) تسمح تمر على الحجرة رقم ثلاثة!

الزبون ٧: الحجرة رقم ثلاثة؟

أدهم: نعم، الحجرة الثالثة ... موضوعك يظهر أنه يهمهم هناك.

الزبون ٧ (ينهض)**:** شكرًا!

أدهم: مع السلامة!

(ويشيعه إلى الباب ... ويعود ليضع رأسه بين كفيه.)

الفصل الثامن

لم يلاحظ أحد التغير الطفيف الذي طرأ على فاطمة هانم، ولم يعر أحد التفاتًا إلى التليفون الذي يطلبها الآن باستمرار في كل يوم تقريبًا! ... وفي عصر ذات يوم خرجت فاطمة وركبت سيارة أجرة أوصلتها إلى مقهى «الجميزة» على شاطئ النيل، دخلت ووقفت لحظة بالعتبة، وإذا شعبان الجالس إلى إحدى الموائد قد نهض وأشار إليها فأقبلت نحوه وجلست، وأمر لها بعصير الليمون الذي طلبته، ثم أخذ يرحب بها بعبارات ناعمة مهذبة ... كان في مكالماته التليفونية المتلاحقة يحاول إظهار اهتمامه بأمرها وصحتها ومزاجها، ثم يدس بضع كلمات متحفظة توحي بالإعجاب، وهي لا تظهر له أنها فهمت، وأخيرًا رجا منها أن تسمح له بلقاء على انفراد في مكان آخر غير المكتب، وصدته في أول الأمر بلطف، لكنها مع إلحاحه قبلت، لا لشيء إلا لتطلعه على ما قد يجهل من وضعها.

وكان هذا اللقاء الذي اتُّفِقَ عليه في هذا المقهى المنعزل ... رشفت رشفة من عصير الليمون، وتشاغلت بالنظر إلى قارب صيد يقترب من الشط، حتى لا تقابل عينها عينه التي أحست أنها مصوبة إلى وجهها وشعرها ونحرها، وتدافعت في رأسها الأفكار، وتماسكت وتحفزت كالمقبل على هجوم، ثم التفتت إليه فجأة وقالت بلهجة حاسمة: «اسمع يا أستاذ شعبان ... لا تحاول أن تقنعني أن شخصي وحده هو الذي يهمك، أنا لست صغيرة ولا ساذجة حتى أصدق ذلك، وأنا ما جئت هنا اليوم إلا لأوضح لك كل شيء حتى تكون على علم تام.» لقد كانت طول الأيام الماضية تقلب الأمر على وجوهه، وتسأل نفسها في حيدة دقيقة عما يدفع هذا الرجل الذي يصغرها بسنوات إلى أن يهتم بها هذا الاهتمام ويلاحقها هذه الملاحقة؟ ما من سبب في نظرها إلا اعتقاده أنها غنية، وأنها فرصة سانحة لمثله أن يتزوج امرأة ثرية، ولتكن أكبر منه سنًّا، أو على الأقل إن لم يكن في نيته زواج أن يغريها ويبتز منها الأموال، ما من باعث غير هذا. فإذا عرف الحقيقة ... إذا عرف أنها لا تملك

شيئًا، إلا مصروف يد، لا يعدو جنيهات قليلة ... تتقاضاه من مرفت لحوائجها العادية، علاوة على الكسوة السنوية البسيطة التي تتكفل بها مرفت أيضًا — وهي لا تتعدى بضعة فساتين تُفصَّل لها على هامش فساتين مرفت العديدة عند خَيَّاطتها — إذا عرف أنها ليست أكثر من شبه مربية وحاضنة ممتازة لبنت شقيقتها، وأنه ليس لها مركز في الحياة غير هذا ... إذا عرف ذلك عنها فما هو الشيء المغري فيها؟

واجهته بصراحة بكل هذه المعلومات، وأطلعته على تاريخ أسرتها المتواضعة في الريف، وأكدت له أن ما تملكه هي من نقود ربما كان أقل مما يملكه هو ... كان يصغي إلى كل هذا وهو يبتسم، ولم يحدث أي تغيير في أساريره، وظلت نظراته إليها نفس النظرات، وعندما أرادت أن تنهض وتنصرف، بعد أن ألقت إليه بكل ما عندها، استبقاها وتوسل إليها أن تجلس، وقال لها بصوت يسيل عذوبة: «كل ما قلت لي لا دخل له في الموضوع.» فبدا عليها شيء من الدهشة وقالت له: «ما هو دافعك الآن إذن؟» فاستجمع شعبان كل شجاعته وكل قوة تجاريبه المختزنة، وهجم عليها بكلمة صريحة واحدة، كأنها طلقة مسدس واحدة في الصميم: «السكس، الجنس!» ... فبُهتت لحظة، ثم حملقت فيه، وقد تورد وجهها، ثم انتفضت ونهضت وتركته وخرجت من المقهى مسرعة دون أن تلفظ حرفًا.

ولبث شعبان وحده لحظة، وقد أشعل سيجارة وأخذ منها نفسًا بمنتهى الارتياح، شخص آخر غيره لا تجربة له كان يتملكه اليأس، ولكنه الصياد الماهر الذي لا يفزعه هرب السمكة، إنها إنما هربت والطعم في جوفها، فليترك لها الوقت الكافي قبل أن يحرك طرف الخيط الذي في أصبعه ... وكان قارِب الصيد في النيل قد دنا وأصبح مَن فيه على مرمى بصره ... قارِب لا يبلغ طوله مترين يعيش داخله سبعة أشخاص، حول حلة صغيرة فوق موقد نار: الصياد وامرأته وأربعة أطفال وخامسٌ رضيع متعلق بثديها، فضلًا عن سادس في الطريق يبشر به بطنها المملوء ... أسرة على سطح الماء ذات عددٍ عديد، دُودٌ على عُود، هي في وادٍ وراديو ترانزستور في وادٍ آخر فوق مائدة قريبة يجلس إليها رجل منفرد يقرأ رواية بوليسية تاركًا الراديو مفتوحًا يدش ويدش بكلام كثير عن النسل وتنظيم الحمل!

وقد يكون لهؤلاء عذرهم، لكن ما عذر تلك الأسرة الأخرى المشابهة في العدد المرتفعة في المستوى المجتمعة حول مائدة أخرى بقربه: سيدة بدينة حبلى هي الأخرى وحولها أطفال عديدون في يد كل منهم كعكة سميط، وأمامهم زجاجات كوكاكولا، وهم يتصايحون في طلب بائع اللب والفول السوداني. وهذه الأم الأرنبة قد صدع دماغها فيما يظهر حديث

النسل والحمل وزيادة الاستهلاك، فأدارت مفتاح الراديو الذي في يدها على موجة أخرى، وجعلت تهز رأسها طربًا على نغمة: «حبك نار ... نار يا حبيبي نار.»

ولم يجد شعبان ما يفعله بعد ذلك فدفع الحساب ونهض منصرفًا، وهو يتخيل ما يمكن أن يقع الآن في نفس فاطمة، لقد بدا عليها فعلًا أنها فوجئت بصدمة، لقد انصرفت وهي أقرب إلى أن تكون غاضبة غضبًا لا يمكن إصلاحه. والواقع أنها خرجت من المقهى وهي في شبه ذهول، لم تشعر إلا وهي تقفز إلى سيارة تاكسي وتعود إلى البيت، ودخلت توًّا إلى حجرتها وارتمت على مقعد وهي تردد هامسة: «قلة أدب، وقاحة!» ثم هدأت قليلًا وقامت تخلع ملابسها، وعندما انكشف بعض جسمها عاريًا، تطلعت على الرغم منها في شبه حركة غريزية إلى المرآة أمامها، وتفحصت أعضاءها بنظرة لم تحدث منها قبل ذلك، ثم فطنت سريعًا إلى نفسها، وابتعدت عن المرآة، وبادرت تغطي جسمها وترتدي ثيابها المنزلية.

وتركت حجرتها وذهبت إلى مرفت، فوجدتها مشغولة بصبغ أظافرها بأحدث لون، ولم تسألها مرفت أين كانت ولا متى عادت. لم يكن من عادة إحداهما سؤال الأخرى مثل هذه الأسئلة ... فقد لاحظت مرفت منذ وفاة أمها أن خالتها تتغيب أحيانًا ليلة من ليالي الأسبوع، على الأخص من مساء الخميس إلى مساء الجمعة، ولا تدري سر ذلك. سألتها ذات مرة فأجابتها إجابة غامضة أنها تزور إحدى قريباتها، ولم تسألها بعد ذلك أبدًا، في أي شأن من شئونها الخاصة، واكتفت مرفت في ذلك اليوم بأن مدت أصابعها إلى خالتها قائلة: «ما رأيك في هذا اللون؟» ... فأجابتها وهي ساهمة: «حلو». ورن جرس التليفون، فبادرت فاطمة إلى السماعة باهتمام ظاهر، لكنها وجدت غير ما توقعت، صوت آخر لرجل يطلب مرفت، ولم تتحرك مرفت، قالت لها بغير مبالاة وهي تنظر إلى أصابعها التي ما زالت رطبة من الصبغة: «قولي له يطلبني بعد ساعة». ثم استطردت قائلة: «شاب لطيف عرفناه أخيرًا في الشلة».

وأرادت فاطمة أن تقول لها: «هل هذا حب جديد ... علاقة جديدة ... وإلى متى؟» لكن السؤال انحبس في ذهنها ثم انقلب سؤالًا موجهًا إليها هي ذاتها: «لماذا القلق على مرفت؟ ولماذا أسمي هذا ضياعًا؟! وما الضرر أن تستمتع بحياتها كما تشاء، ما دامت فرصة الاستمتاع قد واتتها، أكان يجب عليها أن ترفض؟ ... وماذا بعد الرفض؟!»

مر يومان، وهي تهرع إلى كل رنة تليفون، وفي اليوم الثالث كان المتكلم شعبان، تحدث بصوت أتقن تمثيل تهدجه واضطرابه، قال إنه يأسف ويعتذر، ويتوسل إليها أن تتيح له فرصة لقائها مرة أخرى في نفس المكان والموعد، ليشرح لها حقيقة موقفه،

وأجابته بصوت حاولت هي أيضًا أن تتقن فيه الاتزان: إنها لا ترى ضرورة لأسف أو اعتذار، وكذلك لا ترى نفس الضرورة للقاء آخر، لكنه أخذ يلح، وكانت في قرارة نفسها تنتظر منه هذا الإلحاح، لتزداد اقتناعًا، أكد لها أنه لم ينم منذ ذلك اليوم، لاعتقاده أنه جرح شعورها، وهو لن يستريح حتى يطالع الصلح بنفسه على محياها ... وأخيرًا قبلت ووعدت.

وفي الموعد المحدد ذهبت، لكن بفستانها الجديد، وبشيء من أحمر خفيف على الشفتين، وتوضيبة شعر أجهدتها أمام المرآة لتبدو فيها كما تشتهي ... وإلى نفس المائدة جلسا معًا، وهو يزحزح مقعده قليلًا قليلًا ليقترب منها، ولاحظت هي ولم تمانع، وقد أراد أن يسحب كلمته التي صدمتها، وأن يفسرها تفسيرًا مهذبًا بريئًا، لكنها في أعماقها كانت تريد العكس، كانت تريد منه تفسيرًا يزيدها اقتناعًا، هل الجنس أو «السكس» وصف لعلاقة يمكن حقًّا أن تقوم بينهما؟ أما زال فيها شيء يُشتهى؟ ... ولم يفته بإحساسه المدرب مرماها الخفي، فقال لها: ليس هناك أصفى لهبًا ولا أشهى منظرًا من خفقة شمعة يظنون أنها ذبلت! ... وأنه لا بد من خبير أو بصير ليقتنص هذه اللحظة الفريدة ويستمتع بها ... لكن ليس من السهل على امرأة عاشت حياة طويلة بهذه الصرامة أن تتبذل دفعة واحدة، حتى وإن اشتهت.

وأدرك شعبان هذه العقبة، فطن تمامًا إلى موقفها وإلى ما يعتمل في نفسها، إنها تريد ولا تجرؤ، يجب أن يعالج الأمور بدقة وحذر مع مثل هذه السيدة المحترمة. لقد فهم الآن كل منهما الآخر وما يريده الآخر، بقيت الخطوة التالية، وهل يقترح عليها كأسًا تفرفشها وتحل عقدة وقارها؟ فليحاول ... وهم بأن يصفق للجرسون، لكنها منعته، قالت إنها فهمت مراده، ولا حاجة معها لمثل هذه الوسائل، إنها الآن ليست طفلة، وعندما تقتنع بشيء فإنها تفعله ... على أن هذا المكان ليس بالمكان المناسب للقائهما.

وأدرك شعبان صواب الملاحظة، حقًّا أين يجتمع بها إذا أرادا الخلوة؟ لا بد إذن من البحث عن مكان لائق ... ولعنة الله على معارفه الحثالة، ومستواهم الواطي، ليس فيهم واحد من أولئك الذين يملكون السيارة والجارسونيِيرة، وتلفتت فاطمة حولها كمن أزعجه تيار بارد في الظهر، من نظرات الجالسين على الموائد ... وفهم شعبان فقال مؤيدًا لما لم تقله: «فعلا ... مكان مكشوف غير مناسب» ... فهزت رأسها بالإيجاب، وتحركت للانصراف وهي تقول له بابتسامة مشجعة: «اتصل بي غدًا بالتليفون!»

المنظر الثامن

(شعبان يدخل على أدهم في مكتبه دخول الظافرين.)

شعبان (هاتفًا): وصلنا.

أدهم: وصلنا! وصلنا إلى ماذا؟

شعبان: إلى الهدف.

أدهم: أي هدف؟

شعبان: فاطمة هانم ... خالتها ... أنا الآن على عتبة النجاح، غدًا بإذن الله يبدأ الهجوم الكبير.

أدهم: لعنة الله عليك!

شعبان: الله يسامحك! ... كنت أنتظر منك التهنئة!

أدهم: اسمح لي أقول لك ... أنت مقرف!

شعبان: أنا؟!

أدهم: أهدافك في الحياة صغيرة وحقيرة!

شعبان: لا أرجوك ... إهانات لا ... لا أقبل أبدًا ... ومع ذلك قل لي ... ما هي أهداف سيادتك العظيمة النبيلة؟!

أدهم: مع الأسف.

شعبان: إذن اسكت واتلهي، الحال من بعضه! ... أنا على الأقل عندي هدف ... صغير حقير ... هدف والسلام ... لكن أنت؟

أدهم: أنا في الحقيقة ...

شعبان: أنت في الحقيقة غير مفهوم ... أنا عاشرتك هذه المدة ولا أعرف ماذا تريد؟

أدهم: أريد أن أعمل أي شيء نافع.

شعبان: نافع لمن؟

أدهم: للناس جميعًا، وللأمة كلها؟

شعبان: للأمة كلها؟! وهل أنت مسئول عن الأمة كلها؟

أدهم: بالتأكيد ... مسئول.

شعبان: ومن الذي سألك وكلفك؟

أدهم: لا أحد ... أنا نفسي.

شعبان: ولماذا تتعب نفسك؟

أدهم: أنا حر يا أخي.

شعبان: أصحاب العقول في راحة!

أدهم: بالعكس، أصحاب السخافة في راحة!

شعبان: إياك تشتم ... أو تطيل لسانك ... أحذرك!

أدهم: وما شأنك أنت؟ ... هل أنت سخيف؟ ... أنا أشتم السخفاء ... أصحاب الحياة السخيفة ... ومع ذلك حتى هؤلاء ليسوا في راحة، حتى السخافة أصبحت لها متاعبها ومطالبها.

شعبان: متاعبها ومطالبها؟ ... السخافة؟!

أدهم: ككل شيء آخر.

شعبان: ما هذا الهذيان؟! أنا ألاحظ عليك هذه الأيام حالات غريبة ... ربما كانت أعراض مرض غير معروف!

أدهم: ربما.

شعبان: فتحنا البنك لنعالج الناس فإذا أنت أول من يستعصي علاجه! ... كمدير مستشفى المجاذيب الذي انقلب مجنونًا بحق وحقيق!

أدهم: نحن كنا مرضى قبل أن نفتح المستشفى أو البنك ... ولم نزل مرضى مثل غيرنا.

شعبان: تكلم عن نفسك وحدك من فضلك ... أنا لم أكن مريضًا في يوم من الأيام ... ولله الحمد!

أدهم: بالطبع أنا أتكلم عن نفسي وحدي ... لأني أستطيع أن أدرك العلة.

شعبان: وما هي العلة؟!

أدهم: هذا شيء لا يمكن أن تفهمه أنت ... إلا عندما تفيق.

شعبان: أفيق؟!

أدهم: أنت وأمثالك.

شعبان: أمثالي؟!

أدهم: نعم وربما لا يحدث ذلك قريبًا.

شعبان: حضرتك خرفت! ... والكلام معك مضيعة للوقت ... سلام عليكم! (ويتحرك للانصراف ثم يقف فجأة) أنت يلزمك علاج سريع ... أتعرف ما هو؟

أدهم: لا.

شعبان: هو أن تذهب في الحال وتلقي بنفسك في النيل ... وهناك صياد في قارب صغير يمكن أن ينتشلك ... فإذا انتشلك تبدأ حياتك من جديد.

أدهم: وإذا لم ينتشلني؟

شعبان: تغرق، ويكون هذا من حظ البشرية!

أدهم: صدقت.

شعبان: اعمل بنصيحتي! ... سلام عليكم.

(ينصرف.)

(يظهر بالباب الزبون الثامن، أو على الأصح الزبونة، لأنها سيدة فوق الخمسين.)

أدهم: أهلًا وسهلًا ... تفضلي.

الزبونة ٨: هنا البنك؟ ... أنا قرأت على الباب ...

أدهم: تفضلي ... (يشير إلى المقعد) استريحي!

الزبونة ٨: أنا متأسفة ... أنا في حالة ... أنا في شدة الحيرة والقلق، كنت هنا في العمارة ... وأنا خارجة قرأت اللافتة، وكلمة القلق ... وبدون أن أشعر أو أفكر دخلت عندكم ... والله بدون شعور.

أدهم: هدئي نفسك ... كلنا في خدمتك ... ما هو الموضوع؟

الزبونة ٨: كنت هنا في العمارة ... أنا وبنتي وخطيبها ... قالوا لنا هنا شقة بخلو رجل ... تعرف حضرتك كم الخلو؟ ... ألف جنيه! ... تصدق؟ أربع حجرات وصالة ... بنتي مخطوبة ونحن نجهز لها، وقبل الجهاز لا بد طبعًا من إيجاد الشقة، والجهاز نفسه يا سيدي يلزم له الآن مبلغ وقدره، حجرة النوم التي كانت من سنة بمائتي جنيه الآن بستمائة، قل لي وحياتك: ماذا أعمل؟ ... كل المبلغ الذي قعدنا ندخره لزواج البنت حوالي ألف وخمسمائة جنيه.

أدهم: نعمة من الله!

الزبونة ٨: ما هي النعمة يا سيدي؟

أدهم: ألف وخمسمائة جنيه لفرش مسكن ... أهذا لا يكفي؟

الزبونة ٨: يكفي؟ ... هذا لا يكفي لفرش حجرتين ... انزل السوق وأنت تعرف!

أدهم: ربما كنت حضرتك تطالبين بمستوى فرش معين.

الزبونة ٨: المستوى الذي يليق بنا ... هل تدخل بنتي بجهاز أقل من جهاز بنات خالتها وبنات عمتها؟!

أدهم: لا طبعًا.

الزبونة ٨: كيف أحل هذا المشكل؟ دماغي سينفجر!

أدهم: والآنسة بنتك، المخطوبة ... ما رأيها؟

الزبونة ٨: ماذا تعمل المسكينة؟ يكفي أنها تكد وتتعب وتوفر من مرتبها لتساعد في الجهاز.

أدهم: أهي تشتغل؟

الزبونة ٨: طبعًا، هي بسلامتها خريجة تجارة وتعمل في شركة ...

أدهم: وخطيبها؟

الزبونة ٨: موظف معها في الشركة، يبقى رئيسها ... عنده دكتوراه.

أدهم: ما شاء الله! شيء عظيم.

الزبونة ٨: وعنده سيارته ... اسم الله عليه! ... سبقني هو وبنتي إلى السيارة ... وخطفت أنا رجلي ودخلت عندكم هنا ... قولوا كيف أتصرف؟

أدهم: إذا اتفق الخطيبان على جهاز في حدود المبلغ الموجود ...

الزبونة ٨: المبلغ الموجود لا يأتي بجهاز عليه القيمة.

أدهم: وماذا يهم؟ ... ما دام الخطيبان سعيدين!

الزبونة ٨: وكلام الناس يا حضرة؟! ... كيف تستطيع بنتي أن تواجه صديقاتها وبنات خالتها وعمتها؟! كل واحدة دخلت بجهاز فخم ... فكيف تنزل بنتي إلى المستوى الذي لا يليق بها؟!

أدهم: نحن الآن في مجتمع اشتراكي.

الزبونة ٨: مجتمع إيه؟!

(تظهر بالباب الخطيبة وخلفها الخطيب.)

الخطيبة: أنت هنا يا ماما؟

الزبونة ٨: تعالي يا بنتي ... تعالَ يا دكتور!

أدهم: تفضلوا ... أهلًا وسهلًا!

(يشير إلى مقعدين.)

الخطيبة: التفتنا فلم نجدك خلفنا، سألنا البواب قال إنه رآك تدخلين هنا.

الزبونة ٨: هنا يا بنتي يعالجون القلق ... وأنت عارفة أنا دماغي انفجر.

الخطيبة: لكن هذه مسائل خاصة يا ماما.

الزبونة ٨: إنهم لا يعرفون من نكون ... لم أذكر أسماء ... نحن مجرد ناس نشكو من الحالة ... وربما كان غيرنا كثيرين مثلنا.

أدهم: اطمئنوا ... نحن هنا لا نتدخل في خصوصيات ... ولكننا بقدر الإمكان نحاول التخفيف من متاعب الناس.

الخطيب: اسمح لي أسأل ... ما هي طريقتكم في ذلك؟

أدهم: ليس لنا طريقة ... هذا مكان يأتي إليه من يريد أن يتكلم ... مجرد الكلام فيه أحيانًا راحة وتفريج.

الخطيب (للسيدة): ولكنك يا تيزة كنت تستطيعين الكلام معنا نحن في البيت!

الزبونة ٨: هذا ما حصل ... وجدت أمامي لافتة عليها كلمة القلق، رحت داخلة.

أدهم: حصل خير على كل حال، ولنعتبر أنفسنا هنا الآن جميعًا أفراد أسرة واحدة ... ما هو الضرر في أن نتحدث عن متاعبنا؟

الخطيب: لا توجد متاعب بالمرة، خلاف غلاء الأسعار المطرد ... وهذه ظاهرة عامة في الدنيا كلها، وتعليلها معروف.

أدهم: طبعًا سيادتك أدرى منا ... الست قالت إنك تحمل دكتوراه.

الخطيب: نعم، في الاقتصاد.

أدهم: وفي الاقتصاد بالذات!

الخطيبة: وله مؤلفات في الاشتراكية.

أدهم: أيضًا؟! الدكتور إذن اشتراكي صميم.

الخطيبة: طبعًا، وأنا مثله، أليس كذلك يا شكري؟

الخطيب: بالفعل.

أدهم: عظيم ... عظيم.

الزبونة ٨: كان كل أملي أراهما في عش الزوجية هذا الشهر ... لكن الشقة والجهاز ...

أدهم: يظهر أن الست الكبيرة تريد الشقة والجهاز من مستوى لائق.

الزبونة ٨: طبعًا يا سيدي ... أنا قلت لك الظروف.

الخطيبة: أي ظروف يا ماما؟

الزبونة ٨: مستواك العائلي يا سميرة ... بنت خالتك تحية ... أنت عارفة بأي جهاز دخلت السنة الماضية ... أول شيء ستفعله عندما تزورك في مسكن الزوجية هو أن تنظر إلى جهازك حجرة حجرة وتقارن.

الخطيبة: فعلًا، هذا أول شيء ستفعله تحية.

الزبونة ٨: ليست تحية وحدها، الجميع.

أدهم: الجميع؟! لا ... أنا أظن الدكتور لا يهمه مستوى الجهاز.

الزبونة ٨: كيف لا يهمه ... الدكتور قام بدفع مهر محترم ... علاوة على عُلب الملبَّس التي سيقدمها ... من أفخر نوع حسب المتفق عليه.

أدهم: وهل من الضروري عُلب الملبَّس؟

الزبونة ٨: ما هذا الكلام الذي تقوله يا حضرة؟! هذا أهم شيء! علب الملبَّس ... لأنها هي التي في عيون الناس ... بعد الشبكة ... والشبكة والحمد لله كانت تشرف.

أدهم: ورأي الآنسة؟

الخطيبة: رأيي أن خطيبي قام ويقوم بكل الواجب.

أدهم: ورأي الدكتور أن عُلب الملبَّس والشبكة حاجات ضرورية الآن؟! ... في هذا المجتمع الجديد؟!

الخطيب: والله هذه ... عادات.

أدهم: عادات بُرجوازية!

الزبونة ٨: ماذا تقول حضرتك؟ طبعًا ضرورية ... حضرتك غرضك تحرض الدكتور على عدم إحضار علب الملبَّس؟!

أدهم: أستغفر الله ... أنا حرضته؟!

الزبونة ٨: اسمع يا حضرة أنت! علب الملبَّس أهم شيء ... ولا بد تكون من أحسن صنف ... عيب نضحك علينا الناس على الأواخر ... أنت لا تعرف من حولنا ... ولسانهم الطويل.

أدهم: أنا سحبت كلامي ... أرجوك يا دكتور أحضر الملبَّس من أحسن وأفخر صنف! ... هذا مجتمع بُرجوازي داخل قِماط اشتراكي! اشتراكية قوانين ولوائح، وليست بعدُ اشتراكية روح! ... أحضر الملبَّس والعُلب من أغلى نوع!

الزبونة ٨: هذا ما كان سيفعله بالطبع، أليس كذلك يا دكتور؟

الخطيب: طبعًا، طبعًا يا تيزة، لكن ...

الزبونة ٨: لكن إيه؟! ... أنت نويت ترجع في كلامك؟!

الخطيب: لا أبدًا يا تيزة ... أنا فقط أردت أن أقول إن هذه تفصيلات لا تثار هنا.

الزبونة ٨: لك حق ... أنا غلطانة ألف مرة ... غلطانة أني دخلت هنا ... أنا حضرت أبحث عن واحد يحل لي إشكالي ... أو على الأقل من يسمعني الكلام الذي يريح أعصابي ... وإذا بحضرته لا حل ولا ربط ... وأسمعنا الكلام الماسخ الذي كنا في غنى عنه ... قوموا بنا!

(تنهض منصرفة بدون سلام، ويتبعها الخطيب والخطيبة بعد أن يحيِّيا برأسيهما.)

أدهم: سبحان الله!

(يظهر بالباب الزبون التاسع، وهو كهل في الخامسة والخمسين.)

الزبون ٩: تسمح لي أدخل.

أدهم: تفضل!

الزبون ٩ (يجلس على مقعد)**:** أنا في الواقع ...

أدهم: أفندم؟

الزبون ٩: المسألة تتعلق بأولادي.

أدهم: خير إن شاء الله!

الزبون ٩: بالعكس لا يوجد خير بالمرة، أنا لا أريد أن أطيل عليك ...

أدهم: تفضل تكلم على راحتك.

الزبون ٩: أنا يا سيدي الفاضل عندي ثلاثة أولاد ... سببوا لي وجع الدماغ؛ الأصغر في التاسعة عشرة يظهر أنه انحرف ... ليس عنده غير السجاير والمكيفات والبنات والسينمات وحب المغامرات أيًّا كانت ... يظهر أنه يريد أن يعيش حياة أبطال الأفلام السينمائية المنحطة. أما الولدان الكبيران فقد تخرَّجا بنجاح وتوظفا، لكن الخناقة بينهما لا تنتهي؛ أولهما يقول عن الثاني إنه يساري، والثاني يقول عن الأول إنه يميني. وأنا بينهم جميعًا لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أتصرف؟

أدهم: وأنت ما الذي حشرك بينهم؟

الزبون ٩: أنا معهم في معيشة واحدة، أنا وأمهم طبعًا، وهي أشد مني انزعاجًا، ولا يمكن أن تتصور هذا الجحيم الذي نعيش فيه كل يوم.

أدهم: ما الذي يحدث منهم بالضبط؟

الزبون ٩: الولد الأصغر نكاد لا نراه ... يرجع لنا كل يوم مع الفجر ... أين كان طول الليل؟ ... مع من كان؟ ماذا كان يفعل؟ ... لا ندري، وكلما سألناه أو نصحناه أو حاولنا التفاهم معه شوح لنا بذراعيه ورفع صوته علينا بألفاظ نابية وتركنا وانصرف ... هل أطرده؟ ... والدته تبكي وتستعطفني بقلب الأم، وتقول: اصبر عليه ربما يعقل.

أدهم: هذا واحد، والثاني؟

الزبون ٩: الثاني والثالث، كما قلت لك، موظفان، ولا بأس بهما في عملهما الخارجي، لكنهما متى عادا من العمل قلَبا علينا البيت بمناقشات تصل إلى حد الخناق والتراشق بعبارات واتهامات خطيرة ... وأنا وأمهما في حيرة ... هل نتركهما يقطِّع أحدهما الآخر تقطيعًا كل ساعة بهذه الصورة؟!

أدهم: هل استُعمِلَت مسدسات أو سكاكين؟

الزبون ٩: ما هذا الكلام؟!

أدهم: هذا فقط لمجرد المباسطة! ... الظاهر أن الشجار بينهما عبارة عن خلافات في الرأي ... ليس إلا؟

الزبون ٩: أكثر من هذا بكثير، إنها اتهامات متبادلة ... لا أحب أن أذكرها ... تصور حضرتك ... والد في مثل سني يريد الهدوء فيجد ولديه من حوله يصيحان طول الوقت، ويقول كل منهما عن الآخر إنه كارثة على البلد؟!

أدهم: وأنت ... ماذا قلت لهما؟

الزبون ٩: قلت لهما إني لا أستطيع أن أنام طول الليل على جنب واحد، وإني أحيانًا أنام على جنبي الأيمن وأحيانًا أنام على جنبي الأيسر.

أدهم: وماذا كان جوابهما؟

الزبون ٩: سخر الاثنان مني وقالا لي: هذا في النوم.

أدهم: طبعًا، هذا في النوم.

الزبون ٩: أنت أيضًا تقول ذلك؟

أدهم: أنا أقرر الواقع، أنت تقول إنك تتقلب في النوم ... طبعًا في اليقظة أنت لا تلازم الفراش ... وإذن لا تنام ولا تتقلب.

الزبون ٩: في اليقظة ... أقعد على كرسي مريح.

أدهم: هذا إذا قعدت، لكن عندما تسير ... في الشارع؟!

الزبون ٩: عندي سيارة صغيرة ... أقودها بنفسي ... طبعًا عندما أجدها، لأنها في أغلب الأحيان يكون قد لطشها الولد الأصغر وذهب بها إلى حيث لا ندري.

أدهم: تقود سيارتك بنفسك هذا شيء جميل!

الزبون ٩: وشيء متعب ومزعج، خصوصًا في الشوارع المزدحمة.

أدهم: حقًّا ... الشوارع المزدحمة أصبحت شيئًا مزعجًا!

الزبون ٩: هذا إلى جانب مخالفات المرور.

أدهم: كان الله في عون من عنده سيارة!

الزبون ٩: حقًّا، إن لم يكن الإنسان عنده نظر سليم وأعصاب متينة فيحسن به ألَّا يقود سيارة، خصوصًا الأعصاب ... أي أعصاب لا تهتز وأنت ترى أمامك في كل خطوة شوارع في اتجاه واحد ... وشوارع عليها لافتات «ممنوع الدخول»، وشوارع تأخذ فيها اليمين فقط، وشوارع تأخذ فيها يمينك ويسارك حسب ما تريد، وشوارع ممنوع فيها الوقوف، وشوارع يمكن أن تقف فيها على اليمين فقط، أو على اليسار فقط ... شيء يلخبط العقل يا أستاذ!

أدهم: وسيارتك لا تزال عندك؟

الزبون ٩: عندي، وهي معي تحت في الشارع منتظرة ... وعلى الله لا يأتي عسكري المرور ويحرر لي مخالفة انتظار!

أدهم: من ضمن المتاعب!

الزبون ٩: ماذا أفعل؟ ... شيء لا بد منه! ... محتاج لها في تنقلاتي وتحركاتي ... المهم أن تسير ولا تقف ... وألَّا أدوس بها أحدًا.

أدهم: ربنا يستر!

الزبون ٩: وأنت يا أستاذ؟

أدهم: أنا يا سيدي ليس عندي سيارة.

الزبون ٩: دعنا الآن من السيارة والسيارات ... أنت لم تقل لي رأيك؟ نحن خرجنا عن الموضوع ... فلنعد إلى مسألة الأولاد.

أدهم: وليس عندي أولاد.

الزبون ٩: أنت لم تحل لي مشكلتي حتى الآن.

أدهم: والله ... في الواقع ... مشكلتك هذه ...

(جرس التليفون يرن يرن.)

أدهم (يرفع السماعة)**:** آلو ... نعم؟ تريد أولاده؟ ... سأقول له ... تحب أرسله إليك؟ ... وهو كذلك ...؟ (يضع السماعة ويلتفت إلى الزبون) مشكلتك من اختصاص الحجرة رقم ثلاثة.

الزبون ٩: الحجرة رقم ثلاثة؟

أدهم: نعم، الحجرة الثالثة هناك، وسيطلب منك إحضار أولادك ... أو على الأقل إحضار الاثنين الموظفين اليميني واليساري.

الزبون ٩: في وقت واحد؟

أدهم: إذا أمكن.

الزبون ٩: أعتقد من الصعب إقناعهما بالحضور معًا.

أدهم: إذن أحضر كل واحد على انفراد.

الزبون ٩: هذا أسهل.

أدهم: على كل حال هذه مسألة تفصيلية يمكنك الاتفاق عليها مع الحجرة ثلاثة ... والآن تسمح تشرف هناك!

الزبون ٩ (ينهض)**:** وهو كذلك ... شكرًا ...

(يخرج.)

أدهم: أف!

الفصل التاسع

ما وافَى عصر الغد حتى كانت يد شعبان قد امتدت إلى سماعة التليفون طالبًا فاطمة هانم، وسمع صوتها يقول له: «آسفة ... اتصل بي عصر الخميس» وأنهت المكالمة، لكن لهجتها كانت لطيفة، لولا هذا لخامرته الظنون. كان اليوم الاثنين، فأجلت الموعد يومين، لا يمكن أن تكون قد رجعت إلى عقلها وأرادت التنصل من وعدها والمماطلة، مثلها كان يتخذ الطريق القاطع الحاسم ويحزم الأمر بالرفض فورًا، لكن هذا التأجيل لعصر الخميس لا بد له من سبب، فلينتظر إذن. وجاء عصر الخميس ورفع شعبان السماعة وطلبها وترقَّب إجابتها هذه المرة، فإذا هي تقول له بصوت هامس: «انتظرني الساعة السادسة على محطة المعادي.»

كانت الساعة وقتئذٍ حوالَي الخامسة، فرأى الأفضلَ أن يبادر هو ويكون في انتظارها، قطعًا للحُجج، وركب القطار إلى ضاحية المعادي وانتظر بالمحطة، وجاوزت عقارب ساعة المحطة السادسة وهو منتظر يقول في نفسه: «أما إذا اتضح أنه مقلب!» لكن القطار التالي الآتي من القاهرة لم يلبث أن ظهر ووقف، ونزلت منه فاطمة هانم، فاطمأن. اقترب منها مرحِّبًا فقالت له: «تعال معي» ... وسارا معًا في طرقات المعادي إلى أن بلغا فيلَّا صغيرة من طابقين تكاد تختفي بين أشجار حديقة كبيرة محيطة بها، فتركته على بعد خطوات من باب الفيلَّا قائلة له: «أرجوك ... انتظر هنا لحظة حتى أعود فأدعوك.» ومضت هي وحدها ودخلت، وبعد نحو عشر دقائق لمح امرأة تخرج من الفيلَّا وتسير متجهة إلى المحطة، امرأة مسنة يبدو من هيئتها أنها خادمة قديمة أو مربية، وما إن اختفت عن الأنظار حتى ظهرت فاطمة بالباب وأشارت إليه أن يدخل.

ودخل سائرًا خلف فاطمة التي قادته إلى داخل الطابق الأول، ونظر فوجد نفسه في صالة مفروشة فرشًا بسيطًا لكنه مريح، ووجد بابين مقفلين لحجرتين متقابلتين، وسلمًا

خشبيًّا يؤدي إلى الطابق الأعلى، ثم بابًا صغيرًا تحته يؤدي إلى حمام ومطبخ وأوفيس ... دعته إلى الجلوس فجلس على مقعد وهو يسألها: «أنحن وحدنا في هذا المنزل؟» فأجابته بالإيجاب، ثم تركته واتجهت إلى الباب الصغير قائلة: «انتظر حتى أعمل لك فنجان شاي.» وقعد قعدة مريحة مسندًا رأسه إلى ظهر الفوتيل ومادًّا ساقيه إلى الأمام كأنه في بيته، وجعل يدندن بصوت خافت.

وفجأة اعتدل وأصاخ بأذنيه، فقد خُيِّلَ إليه أنه سمع صوتًا يأتي من الطابق الأعلى، كأنه صوت نشيج بكاء انتهى بضحكة، صوتٌ نسائي على كل حال، لكنه غريب وخافت جدًّا إلى درجةٍ ظنَّ معها أنه مجرد وهم توهَّمه، وظل لحظة مترقبًا لعله يسمعه مرة أخرى، لكنه لم يتكرر. وعادت فاطمة بفنجان الشاي وقدمته إليه، فرشف منه رشفة ثم سألها مرة أخرى عمن بالمنزل، فقالت: «لا أحد غيرنا» فلما أخبرها عما توهم أنه سمع حملقت فيه قليلًا، ثم بادرت تقول له إنه مجرد وهم، ثم فتحت باب إحدى الحجرتين ودعته إلى الدخول، هذا في رأيها خير من الجلوس في الصالة، وفيها لن يسمع شيئًا إلا صوت طيور المساء وهي عائدة إلى أعشاشها، يسمع تغريدها من الشباك المفتوح على الحديقة. إنها حجرة نوم، وفيها بالفعل شباك تُرَى منه أشجار ضخمة كمَرَدة الجن، وأشارت له إلى مقعد بجوار السرير فجلس، وجعل يفكر فيما ينبغي أن يفعل بعد ذلك، يجب أن يقيس تصرفاته بدقة، فإن أي خطأ في التقدير يمكن مع مثل هذه السيدة أن يؤدي إلى نتيجة سيئة، والأصوب أن يرقب تصرفاتها هي ويتحين الفرصة المناسبة، فلتكن هي البادئة.

لكنها حتى الآن لم تَبْدُ منها أي حركة في غير محلها، فهي قد اتخذت مجلسها على كنبة وثيرة، وكلامها كله يدور حول ضاحية المعادي وهدوئها، وأن هذا المنزل هو لإحدى قريباتها، وهي مسافرة بضعة أيام، لم تترك فيه غير الخادمة العجوز التي خرجت منذ قليل في إجازة تبيت عند ذويها، كل هذا كلام معقول، لكن لماذا جاءت به إلى هذا المنزل المقفر؟ ... ولماذا هو الآن في حجرة نوم معها؟ ... إنها دبرت كل ذلك بعناية، وعليه هو إذن الباقي.

وأسرع عندئذٍ يقول لها: «لماذا نجلس متباعدَين هكذا» ونهض وقعد إلى جانبها على الكنبة ... ثم جعل يشمها ويُطْرِي بإعجابٍ العطر المتضوع من شعرها، وهو يغمض عينيه ويأخذ نفسًا عميقًا، فقالت: «أأعجبك؟!» وكان لصوتها، وهي تلفظ هذه الكلمة، نعومة لم تظهر عليها من قبل، أدرك معها أنه في طريقه إلى هدفه. وبالفعل سار كل

شيء بعد ذلك سيرًا طبيعيًّا سريعًا، وتوالت تفصيلات يكاد كلٌّ منهما لا يذكر منها شيئًا، وتم الانتقال من الكنبة إلى السرير دون أن يشعر أحدهما كيف تم ... وقد راعى شعبان رغبتها فلم يتركها إلا بعد أن تراخت قبضتها عليه، فانفلت منها بلطف وعاد إلى الكنبة وارتدى ملابسه وأخذ يدخن سيجارة، وهي ما تزال فوق الفراش في شبه غيبوبة.

إنها ليست عانسًا بالمعنى الحقيقي، فهي ليست بكرًا، ويبدو أنها لم تتصل برجل منذ زمن طويل؛ رأى ذلك في نظراتها وفي تشبثها بكتفيه، كأنها لا تصدق ما هي فيه، تملكها شعور المرأة التي ذبلت ففقدت الأمل في المتعة مع رجل، ونفث الدخان من سيجارته ونظر إلى ذلك الجسد الممدد الغائب في نشوته، وأدرك حجم تلك المتعة التي تُلْقَى إلى محروم ... العجيب أنه وجد في ذلك متعة له هو أيضًا، إن السعادة مُعدية كالمرض، وهذا الامتنان الصامت الذي يتلقاه من هذه المرأة يملؤه غبطة، إنه أراد التوسل بها إلى أخرى، لكنها هي أيضًا لها مذاقها، وهو من نوع آخر، إنها لفرط تقديرها لما نالت تشعرك بلذة الكرم. إنه الآن أدرك أن زير النساء الحقيقي هو قبل كل شيء رجل كريم، إنه يحب كل النساء، ولا يفرق بين سن وسن، يحبهن أحيانًا لأنفسهن، متعته أن يمتعهن.

وتذكر صديقه أدهم، ذلك الذي لا يستطيع فهم الأمر على هذا الوجه، لا يستطيع أن يرى غير المرأة التي يتعلق بها قلبه وفكره، هي وحدها التي يمنحها كل شيء، وعندئذ تصبح في عينه كلُّ نساء الأرض — ما عداها — كالعدم، إنه قلبٌ أناني وجسد معطل موقوف على امرأة واحدة، قلَّما يجدها، وأغلب الظن أنه لن يجدها، لأنه يصنعها بخياله صورة هائمة، ليس من السهل أن تُصَبَّ في كيان ملموس. أدهم هذا غير قدير على أن يضع شيئًا في كيان ملموس، ومع ذلك يسخر منه ومن اهتمامه بالنساء، من اهتمامه بأن يكون سخيًّا بقلبه وجسده مع كل من تصادفه، حتى مع تلك التي ضاعت منها الفرص، تلك رسالة زير النساء الخالدة في تاريخ البشرية! والأحمق أدهم لا يريد أن يفهمها.

ونفخ مرة أخرى الدخان من سيجارته ونظر بزهو ورضا إلى جسد فاطمة نصف العاري فوق السرير وهي تتنهد، ثم راقبها وقد أفاقت وحركت أعضاءها ثم فتحت عينيها والتفتت حولها، فلما وقع نظرها عليه، أسرعت بلم أطراف ثوبها في حياء، وابتسمت، ثم نهضت واستوت على قدميها وقالت له برقة: «تحب تأكل شيئًا!» ... «أحضر لك فاكهة؟ انتظر لأرى ماذا يوجد في المطبخ!». وخرجت مسرعة ثم عادت بعد قليل بطبق بطيخ مثلج وشوكتين، وجلسا يأكلان معًا ويضحكان، وهي تقول إنها لم تضحك هكذا منذ أعوام طويلة ... منذ شبابها الأول. وعند لفظها لشبابها الأول مرت سحابة في ذاكرتها،

فتجهم وجهها فجأة، ولم يفطن شعبان لذلك، فقد كان التفاته في تلك اللحظة إلى الحديقة وأشجارها التي يلعب بأغصانها وأوراقها نسيم المساء، فاقترح عليها أن يخرجا ويمشيا بين هذه الأشجار، فراقت لها الفكرة، وعند الباب رجته أن يسبقها ريثما تأتي بالإشارب لتلفه حول عنقها وشعرها، لكنها بدلًا من أن تتجه إلى الحجرة التي كانا فيها صعِدت إلى الطابق الأعلى، وخرج هو يتمشى في ممرات الحديقة، ووجد مقعدًا من جذوع الشجر في خميلة من زهر أحمر فجلس ينتظرها.

وساءل نفسه بعد قليل لماذا ينتظر؟ ... أما كان الأجدر أن يستأذن وينصرف؟ ... لكن لا ... إن الانصراف السريع هكذا معناه أنه جاء لقضاء حاجة ومضى، وهذا ما لا ينبغي أن يستقر في ذهنها، إنه يسعى إلى توثيق الصلة بينه وبينها، وأن يكتسب ثقتها ليعرف أشياء ويصل إلى أشياء ... لكنها تأخرت داخل المنزل أكثر مما ينبغي، لا يمكن أن يكون كل هذا بحثًا عن غلالتها الحريرية ... وأخيرًا ظهرت.

المنظر التاسع

(فاطمة تقبل على شعبان وتجلس إلى جواره على المقعد الخشبي.)

فاطمة: أبطأت عليك؟

شعبان: قليلًا، أنت صعدت إلى الطابق الأعلى؟

فاطمة (في اختلاجة)**:** كيف عرفت؟ رأيتني؟

شعبان: طبعًا، كان هذا أمامي قبل أن أخرج.

فاطمة: آه ... لم آخذ بالي، كنت مستعجلة و...

شعبان: ومع ذلك لم تأتي بالإشارب الذي ذهبت تبحثين عنه.

فاطمة: لم أجده، يظهر أني نسيته في ... منزلنا بالدقي.

شعبان: على كل حال أنت هكذا أحسن ... بدون إشارب!

فاطمة: لا تبالغ يا شعبان! أنا أعرف نفسي جيدًا.

شعبان: ما هو الذي تعرفينه عن نفسك؟

فاطمة: على الأقل ما يعرفه الناس وما تعرفه أنت، إني لست في سن الشباب.

شعبان: وماذا يهم؟

فاطمة: يعجبك هذا الشعر الأبيض؟!

شعبان: خصلات بيضاء وسط الشعر الأسود ... جنان!

فاطمة: فكرت أمس قبل أن ألقاك أن أقول للكوافير يصبغها.

شعبان: إياك أن تفعليها!

فاطمة: ما دمت تريد ذلك ... فسأمتثل.

شعبان: أنا أريدك كما أنت، لا تحاولي تغيير شيء.

فاطمة: أحقًّا أنت جاد في هذا الكلام؟

شعبان: وما مصلحتي في الكذب.

فاطمة: حقًّا ... وهذا ما يدهشني.

شعبان: ما الذي يدهشك؟

فاطمة: هذا الإعجاب بي؟ ... إني أكبر منك سنًّا؛

شعبان: ليس بشيء كثير.

فاطمة: أنت طيب القلب ... إني مدينة لك بهذا السرور الذي تدخله على قلبي.

شعبان: أتساءل لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟

فاطمة: ظروف.

شعبان: أهي مرفت؟

فاطمة: نعم.

شعبان: ولكنها هي تزوجت مرتين.

فاطمة: إنها دائمًا كانت في حاجة إلى وجودي بجانبها.

شعبان: لكن ... لا بد أنه كان في حياتك رجل.

فاطمة (مرتجفة)**:** كيف عرفت؟

شعبان: طبعًا، هذا ...

فاطمة (تفهم)**:** آه ... طبعًا عرفت.

شعبان: كان اتصالًا بغير زواج؟ أقصد ... كان حبًّا؟

فاطمة: نعم.

شعبان: لا بد كان ذلك من سنوات.

فاطمة (في تنهد وهي مطرقة)**:** نعم.

شعبان: أنا متأسف، يظهر أني دخلت في موضوعات شخصية لا يصح لي الكلام فيها، كل ما أردته هو أن أقول إنك جديرة أن يكون إلى جانبك رجل ... يعزك و...

فاطمة: أنا متشكرة يا شعبان، وأحب أن أقول لك إنك أول رجل أتصل به ... منذ ... منذ تلك الأعوام الطويلة ... منذ أيام شبابي.

شعبان: لا شك أنك في شبابك ... أقصد شبابك الأول ... كنت رائعة!

فاطمة: أظن.

شعبان: وكيف استطاع ذلك الرجل الذي عرفك تلك الأيام أن يتركك دون أن يتزوجك؟!

فاطمة: كان ذلك مستحيلًا.

شعبان: وأين هو الآن؟

فاطمة: مات ... منذ زمن طويل ... شعبان ... أرجوك! ... اترك هذا الموضوع!

شعبان: اعذريني ... أنا قليل الذوق!

فاطمة: بالعكس، أنت مهتم بي، وأنا مقدرة هذا الاهتمام، لكن ... فلنتحدث في شيء آخر ... حدثني عن نفسك أنت ... أنت متزوج؟

شعبان: كنت.

فاطمة: عندك أولاد؟

شعبان: لا ... يظهر أني لا أنجب، على الرغم من أني تزوجت وطلقت أكثر من مرة.

فاطمة: أنت أيضًا؟

شعبان: نعم، مثل مرفت!

فاطمة: عرفت إذن نساء كثيرات، كلهن بالطبع صغيرات السن!

شعبان: ولكنك أنت شيء آخر.

فاطمة: من أي جهة؟

شعبان: أنت ممتعة.

فاطمة: أنا التي كان يجب أن أقول لك ذلك، لكني ... أخشى أن تكون في نفسك تحتقرني!

شعبان: أحتقرك؟! ... لماذا؟

فاطمة: ثق أني امرأة ذات مبادئ، ولا أدري لماذا أنا فعلت هذا؟!

شعبان: أنت لم تفعلي شيئًا يستوجب ...

فاطمة: إني أكرر أخطائي ... وإن كنت في هذه المرة لم أسئ إلى أحد.

شعبان: أوَكنتِ قد أسأت إلى أحد؟!

فاطمة: أرجوك ... لا تحاول أن تعرف شيئًا عن حياتي!

شعبان: حياتك لا غبار عليها.

فاطمة: في الحاضر ... ربما ... إلى ما قبل هذا المساء.

شعبان: وما الذي حدث هذا المساء؟

فاطمة: هذا الذي وقع بيننا.

شعبان: شيء طبيعي.

فاطمة: ليس بالنسبة إليَّ ... إلى امرأة في سني وتفكيري ... ألم تُسائل نفسك ما هذه السيدة التي قادتك إلى هذا المنزل المنفرد بالمعادي لتلقي بجسدها في أحضانك ... وتنهار هذا الانهيار ... المخجل!

شعبان: ليس بالمخجل ... إنه ممتع!

فاطمة: اسمع يا شعبان ...

شعبان: اسمعي أنت يا فاطمة هانم أريد أن أؤكد لك ...

فاطمة: أرجوك أولًا ... لا تقل فاطمة هانم ... لأن هذا مضحك! ... نادني بفاطمة فقط، نعم ... بعد الذي حدث بيننا في الفراش، أظن من المناسب أن تناديني باسمي المجرد!

شعبان: هل تظنين أن ما حدث بيننا يمكن أن يقلل من احترامي لك؟

فاطمة: هذا ما أرجوه.

شعبان: تأكدي أني أعرف تمامًا من أنت.

فاطمة: أنا نشأت في أسرة فقيرة بسيطة ... كما قلت لك ... أبي كان معاون إدارة مركز في الريف، لم يكن في بيتنا الصغير حنفيات ماء، كنا نشرب من الزير، وكنا نطحن قمحنا ونقوم من الفجر نعجن ونخبز خبزنا بأيدينا، ومع ذلك علَّمنا والدنا أنا وأختي في المدارس، وكان كل ما يطمع فيه أن يراني يومًا مدرِّسة بنات بالأقاليم.

شعبان: أنت سيدة تستحقين كل تقدير.

فاطمة: لو أن القدر أراد لي أن أكون مدرسة كما كنا نطمع ... لكن مع الأسف حدث التحول الخطير في حياتنا أنا وأختي، ودخلنا أسرة عاطف ... وبعدها توالت علينا المصائب.

شعبان: أي مصائب؟! ألم تكن أختك سعيدة بهذا الزواج؟

فاطمة: كانت سعيدة فعلًا ... في مبدأ الأمر ... أحبت زوجها بعد الزواج حب عبادة ... كان عادل حقًّا رجلًا يُحَب ... كانت في عينيه نظرات لا تُقاوَم ... لكن ... لماذا فتحنا هذا الموضوع؟ أرجوك يا شعبان تكلم في شيء آخر!

شعبان (ناظرًا جهة المنزل صائحًا): انظري ... انظري!

فاطمة: ماذا؟

شعبان (يشير بأصبعه)**:** هناك في الطابق الأعلى ... خلف هذه النافذة ... لمحت شيئًا.

فاطمة: ماذا لمحت؟!

شعبان: خُيِّلَ لي أني لمحت شبح امرأة يمر ويختفي!

فاطمة: امرأة؟!

شعبان: نعم، امرأة بيضاء الشعر.

فاطمة: دعك من هذا ... أرجوك!

شعبان: ربما كان هذا المنزل مسكونًا بالأشباح!

فاطمة: هل تؤمن بالأشباح؟

شعبان: ولم لا.

فاطمة: إذن ستخاف أن تأتي هنا مرة أخرى؟!

شعبان: أتريدين أن آتي هنا مرة أخرى؟

فاطمة: أيسوءُك هذا؟

شعبان: بالعكس، هذا يسرني.

فاطمة: يسرك حقًّا؟

شعبان: بكل تأكيد.

فاطمة: أما أنا فإني ... خائفة.

شعبان: خائفة؟ ... خائفة من ماذا؟ من الأشباح؟

فاطمة: أن ... أن أضعف مرة أخرى.

شعبان: أوكنت تظنين أن ينتهي ما بيننا هكذا سريعًا؟!

فاطمة: قل لي يا شعبان ... متى ينتهي هذا العمل الذي تشتركون فيه مع منير؟

شعبان: والله هذا ... شيء في علم الغيب.

فاطمة: أنا لا أثق أبدًا في منير عاطف ... كلام بيني وبينك.

شعبان: أليس هو المتولي شئونكم؟

فاطمة: نعم هو الذي يدير ميراث مرفت ... طبعًا هي لا تحاسبه ... لكني لا أقصد من هذه الجهة.

شعبان: مرفت هي العقبة في سبيلك.

فاطمة: أي سبيل؟

شعبان: استقرارك في بيتك الخاص، لم يكن من المتعذر قطعًا أن تجدي الزوج المناسب، كل مرحلة من العمر ولها ما يناسبها.

فاطمة: تَقدَّم لي بالفعل رجل محترم أرمل في الخمسين، لكن … كيف أتزوج وأترك مرفت تعيش بمفردها بلا زوج؟!

شعبان: أليس في نيتها الزواج مرة ثالثة؟

فاطمة: لا.

شعبان: لماذا لا تجرب؟ … ربما كانت الثالثة ثابتة!

فاطمة: لا تريد.

شعبان: كيف تعيش إذن؟

فاطمة: أسخف وأتفه حياة يمكن تصورها، ألم أقل لك ذلك عندما قابلتك في مكتبك أول مرة؟

شعبان: نعم، وحدثْتِني عن قلقك عليها.

فاطمة: أتعرف ما حقيقة قلقي عليها؟ هو أنها مجردة من القلق، إنها لا تدرك أن حياتها في حاجة إلى إصلاح أو تغيير، وعندما يصل إنسان إلى هذه الدرجة، عندما يفقد الحاجة إلى نقد نفسه، أو القلق عليها، فإنه يصبح في حالة غير طبيعية!

شعبان: أليست هي راضية عن حياتها هذه؟

فاطمة: راضية … كلمة مريحة … قل إنها عابثة بحياتها.

شعبان: العبث بالحياة فيه أحيانًا متعة … دعيها تعبث بالحياة، تلهو كيفما شاءت … مع من تشاء … اتركيها يا ستي تتمتع بشبابها.

فاطمة: لن أمنعها … خصوصًا الآن … بعد هذه الليلة!

شعبان: اتفقنا إذن.

فاطمة: اتفقنا على ماذا؟

شعبان: على هذا الرأي طبعًا … العبث والمتعة ليس فيهما دائمًا عيب!

فاطمة: أنت يا شعبان لم تفهم قصدي، أنا لا أقلق على مرفت لكونها تريد أن تلهو مرة مع شخص ما.

شعبان: أنت إذن لا تمانعين في أن تلهو أحيانًا مع شخص ما؟

فاطمة: ليس هنا جوهر المسألة.

شعبان: بل هذا هو جوهر المسألة عندي.

فاطمة: عندك؟!

شعبان: أقصد ... باعتباري أعالج الموضوع ... بناء على استشارتك السابقة ... طبعًا.

فاطمة: افهمني يا شعبان ... خوفي على مرفت هو لظاهرة أعتبرها خطيرة، ربما كان لقراءاتي دخل ... ولكني أعتبر الشخص الذي لا يَضيق بحالته ولا يُحلل نفسه، ولا يريد أن يعرف أخطاءه هو إنسان في حالة غيبوبة.

شعبان: وهل مرفت في حالة غيبوبة؟

فاطمة: ألم أقل لك إنها لا تعرف شيئًا مما يجري حولها؟ ... تأكد أنها لا تشعر ولا تبالي بما يقع من أحداث، لا تشعر إذا كانت في عهد ملوكية أو جمهورية! ... لا ترى أي فرق! لا تقرأ أبدًا ... حتى ولا الجرائد ... كل معلوماتها تصل إليها في قالب إشاعة أو نكتة أو قفشة، فتضحك بلا مبالاة، وتهز كتفيها ... لكل شيء، ولأي شيء ... حاولت كثيرًا أن أغيرها فلم أستطع.

شعبان: قلت لك ونحن في المكتب، لا تحاولي ... ودعيها وشأنها!

فاطمة: كيف أدعها وشأنها، أنا المسئولة عنها.

شعبان: من قال إنك المسئولة؟ ... هل أنت التي صنعت طبعها؟ إنها خلقت هكذا.

فاطمة: يجوز ... ربما ورثت عن أبيها ... أبوها أيضًا كان فيه هذه اللامبالاة ... لكن أنا التي توليت تنشئتها بعد ذلك، لماذا فشلت في تربيتها؟ ... أتُراني بالغت في تدليلها؟ إنها كانت تكره الدراسة، وكلما هربت من المدرسة كنت أتسامح ولا أجرؤ على إرغامها، وكلما طرحت الكتاب أو مزقته تركتها تفعل ... كلنا في خدمتها ... لم تخدم نفسها مرة ... لقد أتلفتها ... أتلفت حياتها.

شعبان: لا تعذبي نفسك بهذه الأفكار، أرجوك ... ما من أحد يتلف حياة أحد ... كل إنسان مسئول عن حياته.

فاطمة: نتركها هكذا في هذا الضياع؟!

شعبان: إنها ليست أول ضائعة ولا آخر ضائعة!

فاطمة: ماذا يمكن أن تصنع مثل هذه في الدنيا لو فُرِضَ وانقطع إيرادها؟! أي عمل تُحسنه؟ ... إن فكرة العمل نفسها لا تعرف لها وجودًا ولا معنى، أنا وأنت مثلًا نستطيع أن نقوم بأي شيء لكسب لقمتنا.

شعبان: ثقي أنها ستأكل ... وستجد دائمًا من يؤكِّلها! ... اطمئني! الدنيا ما زالت زاخرة والحمد لله بالعاطلين والفارغين والعابثين يعمرون البلاجات واليخوت والكباريهات، هنا وفي بقاع كثيرة من العالم!

فاطمة: آه ... ليس أشق من حمل مسئولية الأولاد! ... خصوصًا في حالتي.

شعبان: حالتك؟ ... ما لها حالتك؟!

فاطمة: أنت لا تعرف ... لو عرفت لعذرت!

شعبان: أعرف ماذا؟

فاطمة: حقيقة حالي.

شعبان: قولي لي إذن ... أرجوك!

فاطمة: لا ... لا أستطيع.

شعبان: ما هو المانع؟ ... ماذا يمنعك من أن تقولي لي؟

فاطمة: لم يحن الأوان بعد.

شعبان: أنا إذن ... لست بعدُ محل ثقتك.

فاطمة: ليست مسألة ثقة.

شعبان: اسمعي يا فاطمة هانم ... اسمحي لي الآن أقول لك يا فاطمة ... وأرجوك أن تعتبريني صديقًا ... إني أراك في حاجة إلى صديق.

فاطمة: هذا صحيح.

شعبان: لا تخفي إذن عني شيئًا ... واعتمدي على إخلاصي ... سأكون في خدمتك، ثقي من ذلك.

فاطمة: إني واثقة، لكني ... لست في حل ...

شعبان: لستِ في حل من ماذا؟ تكلمي يا فاطمة ... كل ما أريد هو راحتك والتخفيف عنك ... هذا واجبي ... لا يصح أن أتركك هكذا معذبة بأشياء أجهلها.

فاطمة: دعني أفكر.

شعبان: أمرك.

(ينهض.)

فاطمة: أتنصرف؟

شعبان: بعد إذنك.

فاطمة: أرجوك يا شعبان لا تغضب مني.

شعبان: أنا أغضب منك؟! ... لماذا؟

فاطمة: قد تظن أني غير واثقة فيك، إني على قصر المدة التي تعارفنا فيها أشعر أنك صديق يمكن الاعتماد عليه.

شعبان: وسأكون دائمًا عند حسن ظنك.

فاطمة: وسأكون لك بدوري مخلصة، تأكد!

شعبان: أنا متأكد.

فاطمة: اسمع يا شعبان، خذوا بالكم من منير ... أنا غير مرتاحة!

شعبان: غير مرتاحة؟!

فاطمة: لست أدري ما الذي حشره معكم؟ ... إنه لا يدخل في عمل إلا ليكسب من ورائه شيئًا.

شعبان: ونحن أيضًا نكسب.

فاطمة: ليس نفس الشيء، على كل حال فتحوا عيونكم!

شعبان: عيوننا بخير ... والظاهر لنا أنه هو الخسران في الشغلة.

فاطمة: أتظن ذلك؟

شعبان: حتى الآن هذا مؤكد.

فاطمة: أنا غير متأكدة.

شعبان: لا تخافي علينا! ... كوني أنت في نفسك ... وهدئي بالك ... وأريحي أعصابك وارفعي معنوياتك وانظري إلى الدنيا بروح طيبة مرحة متفائلة.

فاطمة: اليوم أشعر بذلك فعلًا ... بفضلك يا شعبان.

شعبان: العفو يا فاطمة، متى سنتقابل!

فاطمة: اتصل بي بالتليفون ... مساء الخميس القادم ... مثل اليوم.

شعبان: بعد أسبوع بطوله؟!

فاطمة: هذا هو اليوم الذي يناسبني.

شعبان: أمرك ... والآن ...

فاطمة (تمد يدها إليه): إلى اللقاء يا شعبان.

شعبان: ألا تنصرفين معي؟

فاطمة: لا ... سأبقى هنا.

شعبان: وحدك؟ ... في هذا المنزل؟!

فاطمة: نعم، قليلًا.

شعبان: مع الأشباح؟!

فاطمة: نعم ... مع الأشباح.

شعبان: وهو كذلك ... أذهب أنا إذن.

فاطمة: مع ألف سلامة!
شعبان (قبل أن ينصرف): تسمحين يا فاطمة؟ …

(يقبلها.)

فاطمة (بتأثر وامتنان): متشكرة يا شعبان!

(ينصرف وهي تشيعه بعينيها.)

الفصل العاشر

نفذ شعبان الاتفاق واتصل بفاطمة عصر الخميس كما أرادت، قالت له إنها ستكون في انتظاره في ذلك المنزل بالمعادي حوالي الثامنة بمفردها، لأن الخادمة تكون قد انصرفت في إجازتها الأسبوعية. كانت تكلمه بالتليفون وعينها تراقب المكان خشية من مفاجئ، كأنها مراهقة تخاطب أول حبيب، وما إن وضعت السماعة حتى أسرعت إلى الحمام ومعها ملابس داخلية شفافة اشترتها أخيرًا وتأنقت في اختيار ألوانها، كان مجرد اهتمامها بنفسها الآن يمنحها فرحة الحياة الجديدة ... ومهما يكن تفكيرها في صواب ما تفعل فإنه لم يكن من السهل عليها الآن رفض هذه الفرصة، وانتهت من زينتها وارتداء ثيابها وخرجت توًّا إلى منزل المعادي.

كانت الخادم في انتظار قدومها فصرفتها، وصعدت إلى الطابق الأعلى، وما إن اقتربت الساعة من الثامنة حتى هبطت إلى الصالة، وفتحت الباب ووقفت تترقب، وأقبل شعبان في الموعد، وكان لقاء مما يحدث بين عاشقَين، وقادته إلى نفس الحجرة، وتخفف كل منهما من بعض ثيابه، وكاد يقع بينهما ما وقع في المرة السابقة، لولا صوت صرخة انتفضت لها فاطمة، وقفزت من مضجعها، وخرجت في الحال وصعدت إلى الطابق الأعلى. ومن لهفتها نسيت أن تستأذن من شعبان أو حتى أن تضع شيئًا فوق كتفها العارية، وذهل شعبان لحظة، ثم تمالك وارتدى سُترته وانطلق في أثرها يستطلع الخبر، صعِد إلى الطابق الأعلى فوجد أمامه بابًا مفتوحًا فأطل منه، فإذا هو يجد امرأة بيضاء الشعر، تلك التي لمح خيالها في الشباك من الحديقة وقال إنها شبح، كانت تَنشِج وتبكي وتضحك في حركات عصبية، وفاطمة آخذة برأسها في رفق تهدئها، ثم أحضرت لها دواء في كوب وجرَّعتها ثم أسندتها إلى ظهر مقعد كبير، وجعلت تمسح جبينها بحنان إلى أن استرخت وأغمضت عينيها وراحت في سبات، فتركتها وسارت على أطراف القدمين إلى الباب، فوجدت في

وجهها شعبان واقفًا ينظر إلى ما حدث، فبُهِتَت قليلًا ثم سحبته من يده ونزلت به إلى حيث كانا من الحجرة.

وقرأت في عينيه تساؤلًا، فترددت، أتقول له الحقيقة؟ أم تخترع له حكاية؟ ولحظ ترددها فعاجلها قائلًا: «إذا لم أكن جديرًا بثقتك فلا تقولي شيئًا.» فأجابته: «سأقول، على أن يكون هذا سرًّا بيننا، هذه أختي.» وانطلقت تخبره أن هذه هي أختها الكبرى خديجة، لم تمت، أصيبت بالجنون، ولم يكن من الصواب ترك مرفت تعتقد أن أمها حية، فتعيش صباها وشبابها وهي تعلم أن أمها مجنونة، أمامها حياة ... أمامها المدرسة وزميلاتها، ثم بعد ذلك فرص الزواج ... كيف يمكن مواجهتها لكل هذا والناس تعلم بحالة أمها؟! أُخْفِيَت عنها الحقيقة بإحكام، ونُقِلَت الأم منذ أعوام إلى هذا المنزل المنعزل، وأُقِيمَت على خدمتها هذه المربية القديمة لمرفت، تظل معها طول الأسبوع لا تتركها إلا ليلة الجمعة، في إجازة تُمضيها مع ذويها، وتحل محلها فاطمة منتحلةً لمرفت العذر بأنها في زيارة إحدى القريبات. وجنون أختها هذا هو كل الحقيقة، التي لا يعرفها غيرها هي والمربية القديمة ومنير عاطف بالطبع، لأنه هو المتولي الإنفاق على احتياجات هذا المنزل، من حساب التركة التي خلَّفها أخوه عادل ويديرها هو، لكن ... أكانت هذه حقًّا هي كل الحقيقة؟

هنالك سؤال لم يخطر على بال شعبان أن يسأله، أو خطر له وأحجم: ما سبب هذا الجنون؟ هنا يكمن سر المأساة، لكنه على كل حال ما كان سيتلقى عنه جوابًا صريحًا، فما من أحد يعرف غير فاطمة وحدها، وهي لا يمكن أن تُفضي به، حتى منير عاطف يجهله، ولو أنه عرَفه لأذلَّها وصيَّر حياتها جحيمًا، بل إنها هي نفسها طالما حاولت خنقه في صدرها وكتمان همسه، واقتضاها ذلك سنوات، استحال فيها الهمس الخانق إلى صدًى بارد ... ومع ذلك فقد مس شعبان حافة سرها يوم اكتشف أنها ليست بكرًا، أمَّا مَن هو صاحب تلك الفعلة، وما ترتب عليها، فإن الصمت الدائم قد ختم على شفتيها ... إلا من رعشة عين ورجفة صوت لم يلاحظهما شعبان، وهي تنطق باسم عادل عاطف زوج أختها، الذي وصفت نظراته بأنها لا تُقاوَم!

إنها فعلًا لم تقاومها طويلًا يوم كانت فتاة في التاسعة عشرة تدرس في الجامعة، وتعيش بينهما بقوامها الرشيق ونهديها البارزين. لا تريد أن تتذكر غوايتها وسقطتها، فإنَّ مرَّ الزمن لم يمحُ تمامًا آثار ذلك الخزي وآلامه. لكن كيف استطاع ذلك الرجل أن يسيطر عليها ويجعلها عشيقته، أكثر من عام، في غفلة من زوجته! إن أختها لم تكن تشك لحظة فيما نشأ بين زوجها وأختها الصغرى من علاقة آثمة، فقد كان زوجها مثلها الأعلى

في الرجولة والشهامة، بعد أن وقف وقفته المتحدية أمام أسرته من أجلها، كانت تعبده، وربما كانت هذه العبادة هي التي أعمت بصرها، إن العبادة رفض للنظر. وظلَّ الحجاب مسدولًا وكثيفًا بينها وبين ما يجري حولها، حتى وقعت الواقعة ذات ليلة، فطِنت إلى زوجها وهو ينسَل من جانبها في الفراش ويخرج من الحجرة، ظنته ذهب يقضي حاجة، لكن غيبته طالت، وخافت عليه ونهضت تتحرى الخبر، وعند اقترابها من حجرة أختها فاطمة سمعت أصواتًا غريبة، فوضعت عينها على ثقب الباب فأبصرت الكارثة! … زوجها وأختها متعانقان في فراش واحد، تماسكت حتى لا تقع على الأرض، وكتمت فمها بيدها حتى لا تنطلق منها صيحة، وارتمت في فراشها ودست وجهها في الوسادة وغابت عن الوعي.

مضت ساعات وأفاقت فوجدت زوجها إلى جوارها نائمًا يغط، كان قد عاد ولم يفطن إلى ما بها، إلى الصدمة التي زلزلتها، نظرت إليه وهو راقد في نوم عميق لذيذ، وأيقنت أن حياتها معه قد غدت مستحيلة، بل مجرد حياتها لم تعد في الإمكان، انهار مثلها الأعلى، وانهار هيكل عبادتها، وأصبح الممدَّد بجوارها جثةَ أملٍ وجِيفةَ حُلم، وما قيمة حياة لن يخرج منها بعد الليلة إلا رائحة العفن … ولم تشعر بنفسها وهي تخرج من الحجرة إلى المطبخ، وتحضر كوزًا مملوءًا بالبترول، تصبه على زوجها النائم وتشعل فيه النار، ثم تطرح جسمها بجواره معانقة إياه ليشتعلا معًا، مِيتة بالنار قد يكون فيها أيضًا معنى التطهير.

وهب زوجها واللهب يلفه ويلفها، فدفعها عنه بعيدًا وألقى عليها أغطية الفراش فأنقذها من الموت، أما هو فظل يجري هنا وهناك بلهبه وهو يصيح طالبًا النجدة، ودخل الحمام محاولًا إطفاء النار بإلقاء جسمه في الحوض، لكن امتلاء الحوض احتاج إلى وقت، كانت النار قد تمكنت منه، وعندما خف الجميع لإسعافه كان إنقاذه قد فات أوانه، وتم إسعاف زوجته، لكن الهزة العصبية التي أصابتها من الحروق الخطيرة ومن مأساة الليلة ومما فعلته بزوجها … كل ذلك أدى إلى جنونها، ولم يعلم أحد شيئًا من تفصيلات ما حدث، ولم يكن هناك بالطبع، بالنسبة إلى مثل هذه الأسرة المحترمة، أي تحقيق جِدي، وما كان يُسمَح لأي خاطر أن يتجه إلى سبب يؤذي سمعة الأسرة.

ومُسِحَ كل شيء كالعادة في القضاء والقدر، وفي سيجارة افتُرِضَ أنها تركت مشتعلة في الفراش، وأُسدِلَ الستار على المأساة.

شخص واحد فقط شم رائحة الحقيقة، هي فاطمة، أدركت أن أختها اكتشفت كل شيء وأقدمت على هذا الذي حدث، لكن من المنبع الحقيقي للمأساة؟ إنها هي فاطمة

... الشعلة الأولى لهذه النار التي شبت في هذا البيت ... لا يمكن أن تنسى وجه الصغيرة مرفت — الطفلة بنت السادسة وقتئذٍ — وقد تجمد من الرعب لمنظر أبيها المتدثر باللهب، وهو يصيح وكل من في البيت قد هب لصياحه. لبثت مرفت فترات طويلة من حياتها تفزع لمرأى النيران. وبموت الأب وجنون الأم أصبحت مرفت وحيدة لا عائل لها إلا خالتها فاطمة ... وطوت فاطمة كتاب حياتها الخاصة وكرست نفسها لبنت شقيقتها البريئة، ربما كان في هذا بعض التكفير.

توالت هذه الصور سريعًا في ذهن فاطمة وهي جالسة بجوار شعبان على الكنبة، ربما خطرت في بال شعبان أسئلة، وأهمها ما يتعلق بمرفت، ربما آن الأوان ليقترب من مدارها، وربما لم يكن الوقت قد حان، لا بد أن يبدو طبيعيًّا، وليترك الظروف تقرر، وليكتفِ الآن بمواصلة ما هو فيه من توثيق علاقته بفاطمة، إنه كلما التصق بها اقترب من بنت أختها. ومد ذراعه وطوقها برقة ... وإذا صوت كأنه صوت سقوط شيء على الأرض في الطابق الأعلى ... فنهضت فاطمة مرة أخرى لتصعد مسرعة، وشعبان في أثرها، لكنها استوقفته، ورجته أن يبقى في مكانه وينتظرها. إن أختها لا شك صدمت شيئًا أوقعته على الأرض، وهي غير معتادة رؤية أحد غيرها وغير المربية، وربما أفزعها وجود شعبان.

وامتثل شعبان ووقف ينتظر في الصالة، وأشعل سيجارة وأخذ يتمشى، ثم أدار عينيه يتفحص ما حوله شغلًا للوقت، فوقع بصره على باب الحجرة المقابلة، فاتجه إليه بدافع الفضول وفتحه ونظر ... إنها حجرة مكتب مهملة، فدخلها، وجعل يعبث بأدراج المكتب، وإذا هو يعثر في أحدها على علب تسجيل فارغة مما يستعمل في جهاز «الركوردر». وفي قاع الدرج عثر على ورقة كُتِبَ فيها بقلم جاف عبارة: «العلب من رقم ١ إلى رقم خمسة سُلمت إلى م. ي. ع وتم قبض أول دفعة، والدفعة الثانية مع تسليم الأرقام التالية.» ثم عبارة أخرى أو تأشيرة بخط آخر ولون قلم آخر: «يلاحظ توضيح عناوين المهتم بأمرهم من الفئة أ.»

وسمع شعبان صوت فاطمة تنزل السلم فأغلق الدرج، وخرج من حجرة المكتب ... واستقبلها وقد آثر ألَّا يخفي عنها ما اكتشف ... بادرها بالسؤال عن هذه الحجرة، فقالت إنها حجرة مكتب قديمة لمنير عاطف، أتى بأثاثها هنا ضمن أثاثٍ قديم آخر لم يعد في حاجة إليه، بعد أن ترك منزله الكبير عقب وفاة زوجته، وانتقل إلى شقة الزمالك ... سألها: أهو يأتي إلى هنا؟ ... أجابت: بالطبع من حين إلى حين ليعطي المربية مرتبها

ولوازم المنزل، فقادها من يدها إلى الحجرة وفتح الدرج وأطلعها على العلب الفارغة والورقة والرموز، وأفهمها ما استنتجه، فارتاعت، وقالت إنها لا تستبعد على منير عاطف أي شيء.

ولم يستطع شعبان أن يمكث لحظة، كان من الضروري أن يقابل صديقه وزميله أدهم في أسرع وقت، فاستأذن من فاطمة وقبَّلها وانطلق خارجًا.

المنظر العاشر

(شعبان يدخل على أدهم في مكتبه وهو يلهث.)

شعبان: اسمع الخبر المزعج! ... رحنا في داهية!

أدهم: يا ساتر!

شعبان: قل لي أولًا ... منير بك هنا؟

أدهم: كان هنا وخرج.

شعبان: الحمد لله ... أقدر أتكلم براحتي ... لكن انتظر حتى ألقي نظرة في حجرته ... ربما يكون ترك جهاز التسجيل عنده يدور ويسجل في غيبته ... لحظة واحدة! ...

(يخرج بسرعة.)

أدهم: اللهم اجعله خيرا.

شعبان (يعود)**:** لا ... الجهاز مقفول ... نتكلم إذن باطمئنان ... انتظر نقفل الباب علينا أحسن ...

(يغلق الباب.)

أدهم: كركبت بطني يا أخي ... تكلم!

شعبان: قل لي يا أدهم ... تذكر أننا تكلمنا في مسألة المرتبات التي يجريها علينا، وتحمله مصروفات لا تدر عليه أي مكسب؟

أدهم: طبعًا تكلمنا في ذلك.

شعبان: وماذا قلنا عنه؟

أدهم: قلنا إنه مغفل.

شعبان: لا يا حضرة ... المغفل هو أنت ... ولا مؤاخذة ... أنا وأنت ... نحن الاثنين أكبر مغفلين!

أدهم: ما هذا الكلام؟!

شعبان: الحاصل ... إنه يجري في الخفاء عمليات مربحة من هذا البنك، بالنسبة إليه هو بنك حقيقي!

أدهم: أهو يقبض من الزباين؟

شعبان: لا ... ليس من الزباين.

أدهم: ممن إذن؟!

شعبان: من جهات أخرى.

أدهم: جهات أخرى؟!

شعبان: نعم، وهنا المسألة ... هنا الخطورة.

أدهم: الخطورة على من؟

شعبان: علينا طبعًا، لأننا لا نعرف حقيقة هذه الجهات التي يتعامل معها!

أدهم: من أعطاك هذه المعلومات؟

شعبان: أنا نفسي، اكتشفتها بنفسي بمحض المصادفة ... ألم أقل لك إني أقابل فاطمة؟ ... أتعرف أين تتم المقابلة؟ ... في منزل بالمعادي، منزل منفرد يضع فيه منير بك بعض أثاثاتٍ قديمة له ... اليوم دخلت حجرة مكتب مُقفَلة وعثرت في أحد أدراجه ... تعرف على أي شيء عثرت؟

أدهم: تكلم ... انطق!

شعبان: عثرت على علب فارغة لأشرطة تسجيل ... هي بالطبع تسجيلات الركوردر الموضوع هنا في حجرته ... وإذا بهذه التسجيلات تباع ويَقبض ثمنها على دفعات ... تُسلَّم لشخص حروف اسمه م. ي. ع، كما هو مدون في ورقة وجدتها بجوار العلب، في هذه الورقة أيضًا مطالبة بإثبات عناوين الأشخاص المهتم بأمرهم.

أدهم: المهتم بأمرهم؟!

شعبان: هذا هو نص المكتوب في الورقة ... ولا بد أن نعرف ما هو المقصود من عبارة «المهتم بأمرهم» ... المهتم بأمرهم من أي جهة؟!

أدهم: أنا متذكر الآن ... هناك نوع من الزباين يهتم منير بك بأمرهم بشكل خاص ... ويطلب من هذا التليفون إرسالهم إليه.

شعبان: أي نوع؟!

أدهم: تذكر جيدًا وأنت تعرف ... أنا أذكر أنه النوع الذي يبدو عليه التذمر.

شعبان: آه التذمر!

أدهم: هذه الكلمة بالذات قالها لي اليوم ولم ألتفت إلى مدلولها.

شعبان: بأي مناسبة قالها لك؟

أدهم: دخل عليَّ هنا قبل أن يخرج وأخبرني بمشروع يقترح علينا تنفيذه، هو أن نمد نشاطنا إلى الأقاليم، قال إن من مهام البنوك أن يكون لها فروع في كل مكان، وبنك القلق؛ هذا يجب أن يكون مثل غيره من البنوك ... لكن إنشاء فروع ثابتة فكرة سابقة لأوانها ... ويحسن البدء بفرع متنقل؛ أي إن واحدًا منا يحمل معه جهاز تسجيل ويتنقل به في الريف يسجل قلق الناس، خصوصًا تذمرهم.

شعبان: قال لك ذلك؟!

أدهم: وعرض عليَّ أنا القيام بالمهمة، ووعد بإحضار جهاز تسجيل صغير أحمله وأتجول به، على أن تبقى أنت هنا في المركز الرئيسي.

شعبان: المسألة في غاية الخطورة يا أدهم!

أدهم: يظهر.

شعبان: نعم، يظهر أننا اشتركنا في نشاط مريب.

أدهم: وموقفي أنا أخطر! ... لأن لي سابقة اعتقال ... ولن يصدق أحد حسن نيتي!

شعبان: لكن ... من هو صاحب المصلحة في هذا النشاط؟ من الذي يهمه الحصول على أشرطة التسجيل هذه؟ ويهمه معرفة المتذمرين وعناوينهم؟!

أدهم: الجهات كثيرة!

شعبان: حقًّا، ومختلفة! ... منها المشروع وغير المشروع! لكن مهما اختلفَتْ فإن منير عاطف قدير على التعامل معها في نفس الوقت!

أدهم: في هذه الحالة ... ماذا يجب علينا أنا وأنت أن نفعل؟

شعبان: من الصعب علينا طبعًا أن نستمر ... ونحن نجهل على أي أرض نقف وفي أي طريق نسير! فلنأخذها من قصيرها ونهرب بجلدنا!

أدهم: هكذا بكل بساطة؟! غير ممكن، هربنا لا يخلينا من المسئولية، بالعكس ... نسيت أن عقد هذه الشقة باسمنا؟!

شعبان: آه صحيح!

أدهم: حبكها حبكة جهنمية! منير عاطف هو الذي يستطيع أن يهرب وقت اللزوم، ويتركنا هنا في الشقة غارقين في شر أعماله!

شعبان: يا مغيث!

أدهم: ما الذي أوقعنا هذه الوقعة!

شعبان: أنت ... من غيرك؟ ... أفكارك؟! ... أهذه فكرة تخطر في بال عاقل؟! بنك ... وإنشاء بنك ... وأي بنك؟ ... بنك القلق! ... كلمة القلق وحدها كافية الآن أن تودي بالإنسان في داهية!

أدهم: الآن تقول ذلك؟! ألم تعجبك الفكرة وتوافق عليها؟! أتنكر أنها كانت في ذاتها فكرة طيبة، وكنا نريد من ورائها الخير؟

شعبان: لكن ها هي قد انقلبت بغم!

أدهم: ليس بفعلنا! ... من ساعة أن دخل فيها منير عاطف هذا ... ومع ذلك كيف كان يمكننا أن نكتشف.

شعبان: اكتشفت حضرتك أنه عبيط ومجنون ومغفل ... وأنه هبط علينا من السما لينفق علينا لوجه الله!

أدهم: هذا أيضًا كان رأيك!

شعبان: كنت أجاريك ... عيبي أني أجاري الناس ... لا أحب أكسر نفس أحد.

أدهم: دعنا من هذا الجدل العقيم ولنفكر في المخرج!

شعبان: فكِّر يا سيدي أنت ... أنت الذي أدخلتنا ... وكما أدخلتنا أخرجنا!

أدهم: ليس هناك غير حل واحد.

شعبان: ما هو؟

أدهم: نبلغ البوليس.

شعبان: البوليس؟!

أدهم: جهات الأمن.

شعبان: ماذا نقول لهم؟

أدهم: نقول لهم عن الموضوع.

شعبان: لا بد من تقديم دليل ... وإلا اتهمونا بالبلاغ الكاذب.

أدهم: الدليل عندك يا أخي؟

شعبان: أين هو؟

أدهم: عجيبة! ... ألم تقل الآن إنك عثرت على ورقة في مكتبه القديم بمنزل المعادي؟!

شعبان: آه منزل المعادي! ... أتريد أن ندخل البوليس في منزل المعادي؟!

أدهم: ولِمَ لا؟

شعبان: مستحيل.

أدهم: لماذا مستحيل؟!

شعبان: لا يصح هتك أسرار العائلات، فاطمة هانم استأمنتني وأدخلتني هذا المنزل ... أتريد مني أن أُدخل لها فيه البوليس يحقق ويفتش وينبش؟!

أدهم: يعني نسكت؟!

شعبان: كيف نسكت على شيء كهذا؟!

أدهم: حيرتني!

شعبان: دعك من حكاية البوليس والأمن! ... أنت ضامن ماذا قلت حضرتك في الشريط؟!

أدهم: ماذا تقصد؟

شعبان: ألا يُحتمَل أنك تكون لبَّخت؟! هل أنت متذكر تمامًا كل كلمة قلتها مع الزباين وسُجلت عليك في الأشرطة؟!

أدهم: اسمع! ... لا تجعل الفار يلعب في عبي!

شعبان: أليس هذا من ضمن المحسوب حسابه عند منير بك؟! أن يمسك علينا عبارات معينة مسجلة بصوتنا عنده؟!

أدهم: أنا متذكر تمامًا أني كنت في منتهى الحرص والاحتياط ... راجع نفسك أنت! أنت لسانك مفلوت!

شعبان: لا يا سيدي ... أنا أعرف كل كلمة قلتها ... أولًا ... أنا اشتراكي مائة في المائة! ... وإن كنت بيني وبينك لا أعرف ما هي الاشتراكية؟!

أدهم: وأنا اشتراكي من ساسي إلى راسي ... أكثر منك، وأعرف جميع المذاهب.

شعبان: أنا كل ما أعرفه أني لا يمكن بالسليقة والفطرة أن أكون رأسماليًّا، وأنت كذلك مثلي ... لأن اليوم الذي أردنا فيه تأسيس بنك ... ما شعرنا إلا وقد وجدنا أنفسنا انقلبنا إلى مجرد ...

أدهم: اسمع يا شعبان ... أنا عندي حل.

شعبان: قل ... ما هو؟

أدهم: نروح للبوليس.

شعبان: البوليس؟! تاني؟!

أدهم: لا ... اطمئن ... لن نُبلغ عن شيء بالذات ... فقط سنقول لهم أن يضعوا منير عاطف تحت المراقبة ونطلب من جهات الأمن إخلاء طرفنا من أي مسئولية جنائية عما

يمكن أن يحدث أو يكون قد حدث بدون علمنا، بذلك نحفظ لأنفسنا خط الرجعة، فلا نُتَّهَم بأننا كنا في يوم ما شركاء في عمل غير مشروع.

شعبان: معقول.

أدهم: إذا اتضح لجهات الأمن أن نشاط منير عاطف موافَق عليه أو متفَق عليه كان بها، وإذا كان يقوم بنشاط مريب فنحن غير مسئولين!

شعبان: كلام طيب.

(نقر على الباب، فيذهب شعبان ويفتح، ويظهر منير عاطف يحمل جهاز تسجيل صغيرًا.)

منير (لأدهم)**:** أحضرت لك جهاز التسجيل ... حسب الاتفاق.

أدهم: آه ... جميل جدًّا!

منير (يلتفت إلى شعبان)**:** أنت يا أستاذ شعبان تركت مكتبك وتغيبت أكثر من ساعتين!

شعبان: كنت في زيارة ... قريب مريض.

منير: من الغد أرجوك ملازمة مكتبك باستمرار، لأنك ستكون أنت الوحيد هنا.

شعبان: في المركز الرئيسي؟ ... مفهوم! ... زميلي أدهم بلَّغني بالنشاط الجديد!

منير (لأدهم)**:** بلَّغته التفصيلات؟

شعبان: بلغني، لكن ... أنا لي ملحوظة يا منير بك ... هذا النشاط هو عمل جديد غير متفق عليه بيننا في الأصل!

منير: وهل ضروري اتفاق جديد؟

شعبان: ضروري، لأنه من حقنا نرفض أي تغيير في الوضع.

منير: ولكنه لم يحصل أي تغيير، كل ما في الأمر أننا ضاعفنا النشاط، وكل شيء بثمنه.

شعبان: بثمنه؟! بالنسبة لمن؟!

منير (يحملق فيه)**:** ماذا تقصد؟!

شعبان: أقصد ... طبعًا أنت فاهم.

منير: آه ... تقصد أجركم؟! طبعًا الأستاذ أدهم سيحصل على مصاريف انتقال، أما أنت فعملك هنا هو نفس عملك.

شعبان: ولكني سأقوم هنا بعمل اثنين.

منير: سأعطيك يا سيدي ... حق الدخان!

شعبان: وما هي ضرورة توسيع النشاط الآن؟!

منير: الأقاليم ... لا نعرف عنها شيئًا.

شعبان: ومن الذي يريد أن يعرف ما في الأقاليم؟!

منير: ماذا تقول؟ ... ماذا تقصد؟!

أدهم: زميلي شعبان مفلوت العيار، لا تؤاخذه! ... دائمًا يسأل أسئلة بديهية، اسكت يا شعبان ... دعنا نشتغل بهدوء، اترك لي أنا يا منير بك هذا الجهاز ... وعليَّ الباقي.

منير: وهو كذلك ... من باكر السفر ... سأعد لك خط سيرك ... جهز نفسك!

(يخرج.)

أدهم (لشعبان): ماذا جرى لعقلك! ... إياك أن تجعل الرجل يفهم أننا كشفناه! ... كل شيء يجب أن يتم في السر.

شعبان: اللهم أخرجنا من هذا البنك على خير!

هنداوي